الإسلام

دين الهداية والإصلاح

تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامي

ألفه

محمد فريد وجدي

راجعه وصححه

محمد زهري النجار

من علماء الأزهر

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

٩ شارع الصنادقية بالأزهر

تليفون ٩٣١٢٩٦

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه محمد صاحب البينات ، الداعى لوحدة الإنسانية والديانات ، وعلى جميع إخوانه المرسلين الذين أرسلوا للعالمين على اختلافهم فى الأجناس واللغات ، صلاة وسلاما وعلى آلهم وتابعيهم مادامت الأرض والسموات .

أما بعد ، فقد كنا نتزع دائما إلى وضع رسالة تكشف عن كنه الإصلاح العام الذى جاء به الإسلام للعالمين كافة فيكون بيد كل طالب للحق نبراسا يهتدى به فى ظلمات الشكوك التى طمت فى هذا الزمن الأخير حتى أيأست أهل الثقافة من صحة الدين ، وحملتهم على نبذه والمضى فى أغراضهم الدنيوية ، منطوية قلوبهم على الريب والشبهات . وهذه الحال تنافى الحياة الكاملة ، فإن للروح مطالب معنوية كما للجسم مطالب مادية ، فمن لم يصل للتوفيق بينهما عاش معيشة ضنكا ، وحشر يوم القيامة أعمى ، فضلا عن أنه يمضى حياته يدفعه شك ، وتتلقفه شبهة . على حال لا تتفق والطمأنينة . ولا تستقيم والحكمة .

فلما كنا ننزع إلى وضع رسالة تشفى الصدور من تارات الشكوك . وتقيها وخزات الشبهات . حتى كانت « مسائل فى الدين » التى تضمن عددا من الشبهات والاتهامات الباطلة . فطالبت الجرائد العارفين برد ماورد فيها من الشبهات على الإسلام . فانتدبنا لهذا الأمر الجلل . وقمنا بنشر فصول فى جريدة الجهاد .

ومازلنا نتتبع تلك الشبهات حتى أتينا عليها . ثم رأينا أن نتبعها ببحث فى الإصلاح العام . الذى أتى به الإسلام . على ضوء العلم والفلسفة . ففعلنا . حتى أتممنا ماتصدينا له . فكان حقا علينا - بعد ذلك أن نعمم نشره . فطبعناه فى كتاب . هو هذا الذى نقدمه للقراء اليوم .

ولا أحب أن يفوتنى هنا أن أثنى الثناء كله على حضرة الكاتب الكبير محمد توفيق دياب صاحب «الجهاد» . فقد عنى بهذه الأبحاث عناية خاصة . حتى وضعها ، على طولها فى قسم المحليات لكيلا تفوت أحدا من القارئين ، وهى عناية تكشف عن حب صادق للحق ، وغيرة كاملة عليه . وتفان صحيح على نشره . فله منى شكر لا أحصيه وله من الله الأجر الذى يرضيه .

محمد فريد وجدى

الفصل الأول

الدين والوحى

* ماهو الدين على إطلاقه ؟
* بحث فى الوحى ؟
* ماذا يتطلبه الناس من الدين ؟
* شأن الإسلام مع العلماء المنتهين
* شأن الإسلام مع الأوساط

ماهو الدين على إطلاقه ؟

نحن إن بحثنا فى الدين فإنما نبحث عن الأصل المعنوى الذى يقوم عليه من الروح الإنسانى الصميم . لا عن الأشكال والمظاهر الخارجية التى لاتقف عند حد وتختلف باختلاف الأمم ومكاناتها من التطورات المادية والأدبية .

انظر للإنسان تر له وجودين متميزين ، أحدهما صورى مادى مرتبط بمادة الكون ارتباطا وثيقا بحيث تسرى عليه جميع نواميسه ، وتعمل فيه جميع قواه كما تعمل فى أحقر ذرة منه ، وثانيهما روحانى مرتبط بشىء أرقى من مادة الكون ، وعالم أرفع من عالم النواميس والقوى التى لا تشعر بوجودها ، هى روح الكون نفسه تلك الروح التى أوجدت الكون وأخذت فى تربيته وإعداده للحياة وتكميله على سنة التدرج حتى تبلغ به وبكائناته أوج الكمال الذى أعدته له .

هنا يخطر للمفكر العصرى خاطر فيهمس فى نفسه : هل للوجود روح حتى يصح أن ترتبط بها روح الإنسان ؟ هذه شبهة مشروعة تستحق الحل والاعتبار ، لأنها ترد على كل من يفكر فى هذه المسائل .

نعم إن للوجود روحا كما أن له مادة . . ألا ترى فيه تحليلا وتركيبا، وإيجادا وإعداما ، وتصويرا وإبداعا ، وتوفيقا ونظاما ، وتدريجا وإحكاما؟

وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترىفيه ترقيا مطردا ، وتكملامتواصلا ؟

أرأيت زهرة شذية فسألت نفسك كيف تكونت من هذه الأرض الميتة ، وكيف تآلفت ألوانها الفاتنة ، وتركب عرفها الفياح ، ولطفت حتى لايحس بها ؟

أرأيت الماء الذى تشرب منه شبما[1] زلالا ؟ مم نشأ ؟ وكيف لاينضب ؟ .

أنا أحدثك عنه . تبخر حرارة الصيف بعض مياه البحار والأرض ، فتصعد تلك الأبخرة إلى الطبقات العليا من الجو ماءخالصامن جميع مالابسه من الشوائب، فتتألف منها سحب لا ترى فى فصل القيظ .

ولكن متى جاء الشتاء تكاثفت ورؤيت على حالة غيوم ، ورحلت إلى حيث الجبال الشم ، وتراكم هنالك بعضها على بعض . . فمتى ازداد الجو بردا هطلت ،

(١) شبماً : أى : بارداً

لا أقول كأفواه القرب ، ولكن كالسيول الزراعية ، فما يسقط على الجبال يتحول بالبرودة إلى ثلج ، وما ينزل إلى الأرض يجرى على ظهرها رهوا حيث شاء .

فإذا انقضى عهد المطر كان على رأس كل جبل جبل مثله من ثلج .

فإذا اشتدت عليه الحرارة ذاب منه جزء ونزل على سفحه فيملأ بحيرات هنالك .. فتفيض وتسوق الماء إلى النهر المتصل بها ، فتجرى عبابا متلاطما فتقول الأمم التى تنتفع به — ريا وزرعا — : قد فاض النهر . . ثم يقف عن الفيضان ولكن لاينقطع ماؤه ، لأن تلك الثلوج المتراكمة على الجبال لاتفتأ تذوب تحت حرارة الشمس يسيرا يسيرا لتمد الأحياء دائماً بالماء ، وإن كانوا لايفكرون فى ذلك طرفة عين .

وهل حانت منك لفتة للطيور فى أوكارها ، فرأيت كيف يتعاون الذكر والأنثى على بنائها ، وتزويدها بكل ما يجعلها صالحة لإيواء بيضهما . . وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها ، ثم كيف يترافدان على تربية صغارهما وتهيئتها للحياة على مثالهما ؟ . .

وهل راقبت الحشرات فى ضعفها وسذاجة تركيبها ، ورأيت كيف تهتدى إلى مايصلحها ويحفظ أنواعها ، وكيف تقوم من ذلك على أساليب ووسائل تعجز أقوى العقول عن تدبيرها ؟ ! .

وهل شاهدت أنواعا أخرى من الحيوانات ، فرأيت كيف تقوم على أصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ أنواعها ؟ .

كل هذه النظرات التى تجعلك تفاجىء الحياة وهى تعمل ، تريك رَأْىَ العين أنها تستخدم المادة لأغراضها وتهيئتها لإنتاج الصور التى يعجز الفكر عن استيعابها .

فإن كان لابد من إدراك أى الوجودين أصل للآخر ، الوجود المادى المحسوس أم الروحانى المحجوب ، حفزك النظر المجرد على الاعتقاد بأن الحياة هى أصل المادة ، لا أن المادة أصل للحياة . . وهذا هو الرأى الذى انتهى إليه علماء البيولوجيا ، يقول العلامة الكبير « توماس هكسلى » أحد أعضاء المجمع العلمى الإنجليزى فى كتابه « المدخل على ترتيب الحيوانات » .

« فى كل المملكة الحيوانية لايوجد مجموع فوق هذا المجموع فى تأييد هذا المذهب القوى الذى أومأ إليه «جون هنتر» أكثر من مرة وهو « أن الحياة هى علة الأجسام لا أنها نتيجة لها » ، لأنه فى هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية (يعنى جماعة الأميبا من الكائنات ذات الخلية الواحدة) لايصادف الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التى نملكها اليوم أثر للتركيب الجسمانى فيها . فإن هذه الأحياء لاشكل لها ومجردة من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ، ومع ذلك فهى تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة ، حتى إنها لتستطيع أن تبتنى لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال » . .

هل هذا الترتيب المحكم ، والتكوين المنظم ، والأسباب الموجدة للكائنات ، والعلل الحافظة لها ، والعوامل الدافعة لترقيتها ، والنواميس العاملة لتكميلها . . هل كل هذه المجموعة الضخمة من الأسباب والعلل والنواميس والعوامل ، فى كون يزخر بالأحياء ، ويفيض بالكائنات ، قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق ، ومجردة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها ؟ . .

تستنيم بعض العقول إلى كلمة « الطبيعة » فيجدون فيها سكنا لأرواحهم بل خدرا لعقولهم . . ولو تأملوا لعلموا أن « الطبيعة » كلمة تطلق على المجموعة التى نعنيها من الأسباب والعلل والنواميس والعوامل .

فإن راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قلنا : هل «الطبيعة» تستطيع أن تعمل بغير روح ، وأن تفعل مجردة عن الحياة ؟ لا ، فلا بد من أن يكون للوجود حياة عامة وراء ظواهره المختلفة ، كما أن للجسم الإنسانى حياة خلف ظواهره المعيشية .

فإن ثلج صدر قارئنا على تنور هاتين الحياتين ، ساغ لنا أن نقول إنهما مترابطتان إحداهما مشتقة من الأخرى .

فالحياة الإنسانية قبسة من الحياة الوجودية ، كما أن الجسد قطعة من مادته الأرضية . .

فالشعور بهذا الترابط بين الروحين ، والحنين إلى زيادة توثيق عراهما ، وتعريض صغراهما للاستمداد من كبراهما ، هو أصل الدين وينبوعه فى النفس البشرية .

فالدين بهذا الاعتبار شعور بالارتباط الطبيعى بين الإنسان وروح الكون .

وإذا كان الدين هو هذه العلاقة الطبيعية بين الإنسان وروح الكون ، فى مستوى الشعور بالعلاقة الموجودة بين مادته ومادة الكون . فلا يستطيع مهما بذل من الجهود أن يتخلص من الشعور بهذه العلاقة ، ولا أن يعفى نفسه من العمل لها . فإذا قلنا إن الإنسان لايمكنه أن يعيش بلا دين فلا نكون مغالين، بل نكون مماشين لطبيعة الأشياء . فإذا كان قد أصاب الدين فتور فى بعض الأحيان ، فذلك فى مظاهره الخارجية لافى جوهره وحقيقته ، ولافى شعور النفس بالحاجة إليه .

وقد قال بهذا القول علماء الفلسفة العصرية التى نشأت فى ربوع المدنية المادية . فهذا الفيلسوف الكبير « أجوست سباتييه » يقول فى كتابه « فلسفة الدين » :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لأنى لاأستطيع غير ذلك ، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتى . يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج،فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يزيد المسألة تعقيداً ولايحلها ، وأن ضرورة التدين أشاهدها أكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين . . . » .

إلى أن قال : « وإذن فالدين باق وغير قابل للزوال . . وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعا وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجاريب الحيوية المؤلمة » .

وقال الفيلسوف الكبير « أرنست رينان » فى كتابه « تاريخ الأديان » :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والجسدية ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى . . بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يهدف إلى حصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية » .

بحث فى الوحى

أشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العلمية ، مسألة الوحى . . فيستبعدون أن الله قد أوحى إلى رجال منهم ليحملوا إلى الناس من التعاليم ما يقيمهم على الصراط السوى فى حياتهم الدنيا ، وما يفيدهم من العبادات فى حياتهم الأخرى . . ونحن نتناول هنا هذه الناحية الخطيرة .

إن روح الوجود الذى صور الكائنات كلها على أى أساليب الإيجاد شاء — سواء أخلق كلا منها خلقاً مستقلا أم اشتق بعضها من بعض على قاعدة التحول التدريجى — لم يقطع إمداده لها طرفة عين . وكيف يعقل غير ذلك وهى مستمدة وجودها منه ، وسابحة فيه سبح النينان فى المحيط الزاخر . . منه وجدت ، وبه تحيا ، وفيه تفنى ؟ .

ومما يجب لفت النظر إليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها ، أظهر ما تكون فى الكائنات الدنيا من الأحياء ، ثم يأخذ اتصاله بها فى الخفاء حتى يصل الأمر إلى الإنسان ، فيخيل إليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به إلا بأعمال الفكرة وإنعام الرَّوِيَّة .

خذ فى يدك بذرة من تفاحة وتأملها ، تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة . . فإن قيل لك ، ولم تكن رأيت ذلك من قبل ؟ إن هذه البذرة توضع فى الأرض فتنبت ، ويأخذ هذا النبات فى النمو حتى يصير شجرة ، ثم تزهر فتنفرج زهوره عن ثمر التفاح اليانع فى مذاقه الشهى ، وأريجه الشذى ، ولونه الوردى ، وملمسه الحريرى ، لكذبت محدثك واتهمته بالازدراء بك ، والسخرية منك . . ذلك لأنك لا تعقل أن هذه البذرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست فى الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق ، الأول يغوص فى الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة ، ولا يرتفع إلى سطحه . . والثانى يرتفع إلى سطحه متطلبا الهواء والنور ، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين ، فإنك لا تستطيع . . أليس هذا الأمر وحده الذى ليس له علة معقولة ، يدلك على فعل الروح العام فيه ، وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعيهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتيهما فى الإنبات ؟ .

أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف ، وعلى دفعها لكل عضو فيه إلى موضعه ؟

ثم إذا تأملت كيف يهتدى ذلك الجذير — وهو مغروس فى تربة زاخرة بالمواد المختلفة التى لاتحصى كثرة — لانتخاب العناصر التى تتألف منها شجرة التفاح ، وتفتح زهرتها وتثمر ثمرتها ، وتؤاتيها بشكلها المعروف ومذاقها المعهود . . لو تأملت فى هذا وفى جميع شئون المملكة النباتية ، فاجأت الروح العام وهو يهدى هذه الكائنات الضعيفة إلى ما يصلحها ويفعل فى تكوينها فعلا مباشراً لا يعجز عن إدراكه إلا من ليس له بصر . .

ثم دع المملكة النباتية ، وارتق إلى المملكة الحيوانية . . وانظر إلى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة ، وهى أبسط ما يمكن تصوره منها ، تجدها مزودة بالعلم الذى يحفظ وجودها ويصون نوعها ، وبالمحاولات التى لاغنى لها عنها فى الدفاع عن نفسها وفى الاحتيال للخلاص من المآزق التى تتعرض لها .

فمن أين أتى لهذه الكائنات هذا العلم وهى محرومة من الأعصاب ومن المخ معاً؟ أليس هذا العلم لديها نفثا من روح الوجود نفسه ؟ . .

من الذى أدرى البعوضة أنها يجب أن تبيض على سطح الماء الراكد ، وأنها مضطرة لوضع بويضاتها فى قوارب صغيرة تعوم على سطحه ، ومن الذى وضع فى جثمانها أوعية تحتوى على مادة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب ومن أشعرها بأن تلك المادة تندفع إلى الخارج بالضغط عليها ، ومن لقنها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها ، وهى لاتعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها ، ولم تر هى أمهاتها تفعل ذلك قبلها ؟ وقس على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما لاتحصى أنواعها كثرة . . . وكلها تلهم إلهاما ، وتعيش على أعجب ما يتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة !

هذه ليست أمورا غريبة فحسب ، ولكنها محيرة للعقل أيضاً ومجبرة له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات — على اختلاف أنواعه ، وتباين وسائل حياته ، وتعدد محاولاته — يحيا تحت عناية الروح العامة تمده بالإلهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه ، بحيث لو تركته طرفة عين لهلك .

أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى فى معمعان هذه الحرب الحامية التى تشنها الطبيعة عليها بعواملها المختلفة ، لولا هداية الروح العامة لها وعملها المباشر على صيانتها من معاطبها ، وإرشادها إلى وجوه نجاتها ؟

لقد وصلنا إلى الإنسان ، فهل يتلقى مدداً من الروح العام على نحو ما يتلقاه النبات والحيوان ؟ أما المدد الجثمانى فلا يمكن التشكك فيه ، فإنك تبصر ولا تدرى ما يحدث فى بلورية عينيك من التحدب والانبساط على حسب أبعاد المرئيات ، ولا بحدقتيهما من الضيق والاتساع على قدر كثرة النور وقلته ، وتأكل وتهضم وأنت غافل عما يحدث فى أحشائك من التحليل والتركيب ، والتصفية والتصعيد حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التى تتعاطاها عضل ودم وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب . .

فمن الذى يدير كل هذه الأجهزة الدقيقة وأكثر أهل الأرض لا يعلمون من أمرها شيئاً ؟ ومن الذى يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى ما يقومها ويصلحها ؟

هذا حال الجثمان . . فهل يتلقى الروح الإنسانى مدداً عقلياً من الروح العام ؟

لقد أريتك كيف إن الحيوانات تلهم ما تعمله إلهاما ، وتعجز عن أن تنتجه بعقولها إنتاجا . . فشريعتها مبثوثة فى جميع آحادها على السواء ، فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط ، ولكن كل فرد منها يلهم ما يصلح له إلهاما ، فيكرر العمل الذى كانت تعمله الكائنات التى من نوعه منذ وجدت على الأرض . . فلما وجد الإنسان ، وكان قريباً من الحيوان فى سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده ، تولاه الوحى لا من طريق الإلهام والسوق ، ولكن من الطريق التعليمى ، ما دام قد استأهل هذه المرتبة فيولد الإنسان مجردا من كل علم وكل حيلة ، فيهديه أبواه وقبيله والمجتمع الذى يعيش فيه إلى وجوه العمل . .

فأصبح للوحى سبيل خاص بالإنسان مناسب لكرامته . وهو أن يفضى الروح العام ، بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به ، إلى واحد منهم ، فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه .

هذا هو الذى حدث فعلا ، فإن الإنسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار ، وما نقشه على الأحجار ، بأن آحادا منه كانوا يتلقون الوحى فى

أحوال خاصة من حياتهم ، فينشرونه فى قبيلهم تحت اسم ملة أو ديانه ، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه ، إيثارا لوحى أقدم منه . .

فإذا كان هذا الاعتراف من الأمم منذ القدم لايكفى فى إقناع الآخرين بالفلسفة الحسية . بحجة أن أولئك الأقوام الأقدمين فى جهالتهم وعمايتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحيا ، ولكن قد يكون ذلك مذهبا لرجل رشيد منهم لقنهم إياه تحت هذا العنوان ليعملوا به بجبرين لامخيرين . .

قلنا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن الإنسان وهو يجتاز دور الحيوانية وعفوا فإنى أخاطب أهل الفلسفة الحسية ، لايعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الإلهام الحيوانى الذى تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود . . ولكن الذى يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجياً ، حتى لاتعمى عليه وجوه الحياة فيبيد ، ولم يعهد فى حوادث الوجود الخبط والجزاف كما هو معلوم . .

وعند تمام تميزه عن العالم الحيوانى كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطوراً ذريعاً ، فأصبحت قابلة للاتصال بالروح العام من طريق روحانى محض .

يقول قائل : ما معنى اتصالها بالروح العام من طريق روحانى أليس هذا من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء ؟ ! .

نعم هو كذلك لمن اكتفى من العلم بما تلقاه فى الكتب المدرسية المحدودة . . ولكن العالم منذ سنة ١٧٧٠ أى منذ أن أعلن الدكتور الألمانى « مسمر » بأنه اكتشف سيالا حيويا فى الإنسان أسماه المغناطيس الحيوانى ، وهو جاهد فى تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعى ، وقد ثبت أخيراً وصار فى عداد المعارف الأولية لدى الباحثين، بأن فى باطن كل منا عقلا مستقلا غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالا منه ، هو الذى يوحى إلى الإنسان بالميول الطيبة ، وينهاه عن المنكر والبغى . وهذا العقل الباطن هو الذى يدبر جثمانه ، ويدير أجهزته وأعضاءه ، ويصلحها إن اعتراها عطب . .

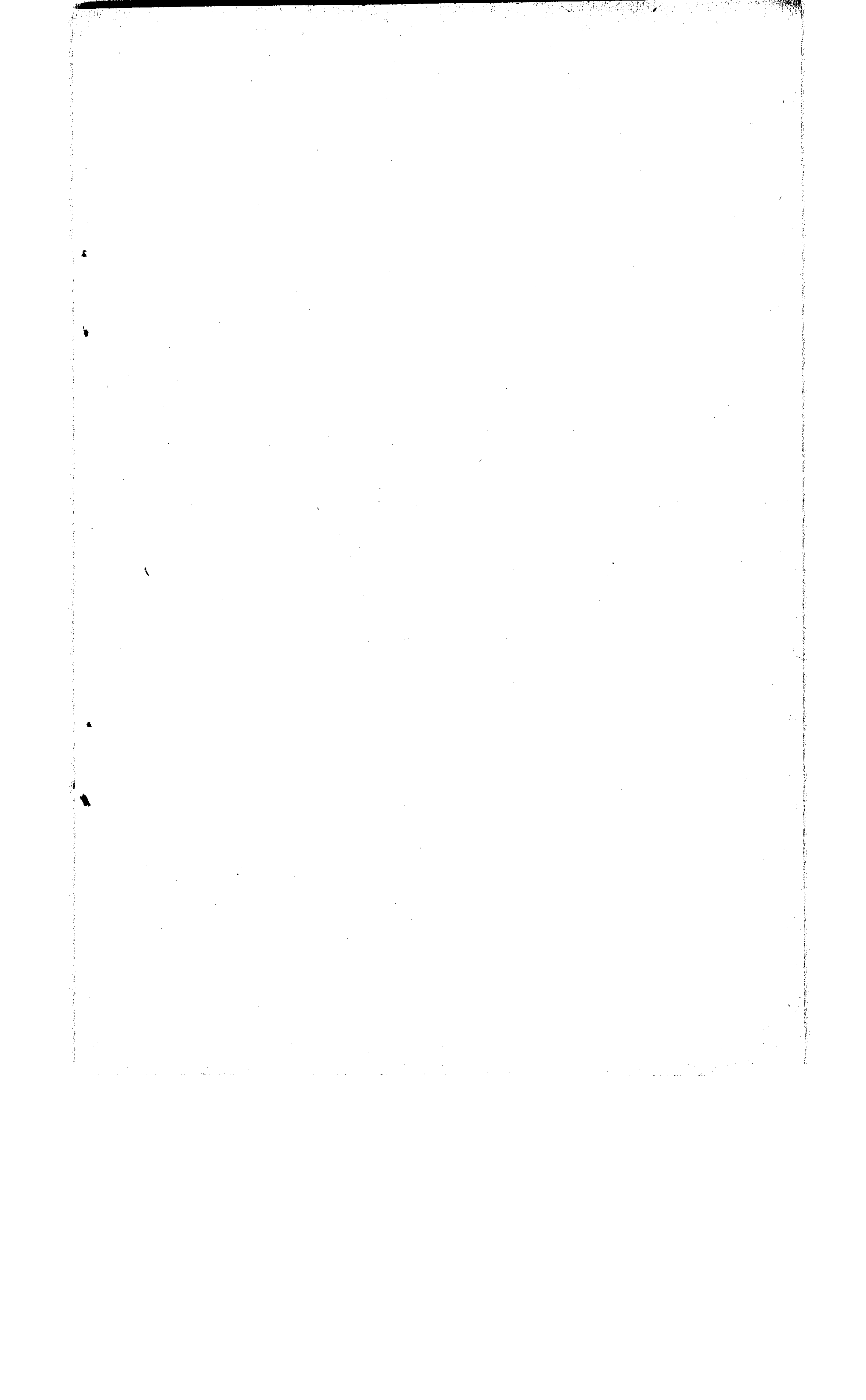
هذا العقل الباطن الذى لايحس الإنسان بوجوده ، متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالا مباشراً . . فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ، ويحاول

أن يعكسه على صاحبه من طريق الإلهام فهل يعقل إلا أن يكون هذا العقل الباطن قد وصل فى بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح العام لإيصال شريعة جديدة إلى شعب هو فى حاجة إليها ؟ .

كيف يعقل خلاف هذا وهو الذى حدث فعلا فى كل أمة وفى جميع أدوار التاريخ . . فلم تخل الأرض قط من داع إلى الحق وإلى الفضائل ، معلنا أنه أرسل لأداء هذه المهمة إرسالا ، فتراه يعرض نفسه للموت فى سبيل تعميم دعوته ويصبر على البأساء والضراء متبعا سمت الصالحين من الزهد فى الدنيا والتواضع وإيثار الفقر حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل فى سبيله .

إذا وجد بين القراء من ينكر العقل الباطن ويتشكك فى اتصاله بالعالم الروحانى مباشرة ، ومن لا يقول بأن للإنسان حياتين : حياة عادية هى ما هو عليه فى حالته المعهودة ، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسى بما لا يدع للإنسان شبهة، ولا يعترف بأن الإنسان فى حياته الروحانية يعيش فى عالم علوى يزخر بالحقائق الإلهية ، والمعارف السماوية ، فينال منها على قدر استعداده ، ويؤديه لعقله العادى ، محاولا إعداده للترقى والتكمل . قلنا : إذا كان بين القراء من ينكر هذا كله ، فليس لنا من وسيلة لإقناعه إلا بلفته للتوسع فى قراءة ما كتبه العلماء الباحثون فى مسألة التنويم المغناطيسى والعقل الباطن ، على الأسلوب العلمى الصارم . .

فإذا كان من الناس من يتجرؤون على التكذيب بهذه الحقائق ، مع إعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها ، فهؤلاء أمة وحدهم . . وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين . .



ماذا يتطلبه الناس من الدين ؟

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : علماء منتهون ، وأوساط متعلمون ، وعامة مقلدون . . وبين هـذه التقاسيم العامة درجات تـكاد لا تحصى ، ترجع كلها إلى عقلية رئيسية مع خلاف لا يعتد به فى مثل هذه البحوث. وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تتطلب من الدين ما يناسبها من الغذاء الروحانى. فما يكفى الطبقة الدنيا لا يكفى ما فوقها ، وما يقنع هذه لا يقنع الطبقة العليا من المنتهين، ولا مناص لنا ـ ونحن نبحث فى الدين العام الخالد ـ أن نلم بكل ما تتطلبه هذه الطبقات الثلاث لنرى هل هناك من دين يفى بحاجاتها كلها ، فيـكون هو الدين العام الخالد، أم لا ، فتلجأ الإنسانية إلى شىء جديد ؟

لا يتطلب العلماء المنتهون أن يأخذوا عن الدين آدابا وأخلاقا ، ولا أن يتعلموا منه أسلوبا فى الحياة ولا دستورا فى المعاملات يتفق وأصول العدل والإخاء والمساواة ، فإنهم مشرعو المذاهب ، وبناة الأساليب ، وصاغة الأصول . . وإنما هم يتطلبون من الدين أن يصلهم بروح الوجود إيصالا مباشراً يستمدون منه حياة لأرواحهم ، ونورا لعقولهم ، وسكنا لنفوسهم ، ومطمأنا لوجدانهم .

يشغل هؤلاء العلماء المنتهين شاغل ضخم أذهلهم عن كل ما سواه ، وهو هذا الوجود العظيم ، وما يعمل فيه من القوى ، وما يتخلله من الاسرار ، وما يترامى فيه من الآيات ، وما يحيط به من العلل الأولية ، والعوامل الخفية ، وما وراء ذلك كله من الروح المدبر والأصل الأصيل .

إن هؤلاء العلماء قد قتلوا المذاهب بحثاً ودراسة ، فازدادوا فى بحوثهم حيرة . . فـكلما ارتفع أمامهم حجاب انفرج عن مجهول أشد غموضاً مما سبقه ، وكلما فتحت أمامهم باحة تراءت لهم منها غاية قصية لا مناص لهم من الوصول إليها ، قبل أن يطمعوا فيما بعدها . وهم من هذا تحيط بهم مسائل لا يتخيلون لها حلا ، وتقوم

فى وجوههم حوائل لايستطيعون لها نقبا ،وتساورهم مشاكل لاتترك لهم بسواها شغلا .فإذا ألقوا نظرة إلى أنفسهم وإلى الوسائل التى يتخذونها لكشف هذه الحجب عن عقولهم ، تكشفت لهم عن ضعف يدفع إلى القنوط من الوصول ، وقصور لايدع لها مطمعا فى أقل محصول !

فإذا أعلن أمثال هؤلاء بأنهم فى حاجة إلى التدين ، فإنهم يعنون من ذلك أن يلقوا بأنفسهم بين يدى قيوم السموات والأرض يتنسمون من ناحيته نفحة ، تكون ـ وهم فى وطيس هذا البحث ـ سكنا لأرواحهم ، وملاذا لشعورهم ، حتى لاتحترق رءوسهم لوعة ، وتتمزق صدورهم حيرة .

فالتدين لدى هؤلاء صعود بالروح إلى بارئها ، واتصال به فى عالمها ، واستمداد منه فى تلهفها . . فإن ازدادوا فى لياذهم بها حيرة كانت حيرة المحب الواله يتحرى سبل الوصال ، لاحيرة الوامق اليائس أغلقت فى وجهه أبواب الآمال . .

هؤلاء المفكرون الكبار لايثنيهم عن دين أن يكون فيه ما يحتاج لتأويل ، أو يستعصى على التعليل . . فهم يعزون كل ذلك إلى عوامل توجبها البيئة القاهرة وتستدعيها عقلية الشعوب المتأخرة ،ولاتتجرد من مثلها المثل العليا حتى فى الطبيعة نفسها ، على أنها الأصل الأصيل للكائنات المادية ، لايثنيهم عن دين فيه كل هذا إذا كانت روحه تصلح أن تؤثر فى أرواحهم ، وأسلوبه يتآخى وأسلوبهم ، وكانت سبيله تخلو من العثرات ، وغايته أبعد من أن تنال بالتخيل والتفكير .. فهم قد ألفوا المجاهيل حتى كرهوا أن يتخيلوا لها حلا ، وأنسوا ببعد الغايات حتى أنفوا أن يتوهموا لها حداً ، لأنهم يرون أن هذه العظمة المحيطة بهم لايصح أن تتكشف أسرارها لعقل أرضى مهما بلغ من القوة ، ولا أن يحيط بحقيقتها نظر مادى مهما نفذ فى سرائر الأمور .

ولابد لى من التنبيه هنا إلى أن هؤلاء العلماء الأعلام يرون أن لاحاجة بهم إلى الأديان المعروفة ، فهم يعتمدون فى تدينهم على ماغرس فى الفطرة الإنسانية من الدين الحق . وقد حمل بعضهم اليأس من الأديان الموجودة على وضع دين دعوه « الدين الطبيعى » ، فصلنا أصوله فى كتابنا « المدنية والإسلام » .

أما الأوساط من طائفة المتعلمين ، ومن فى مستواهم من المفكرين، فيتطلبون من الدين أن يكون واضح الحجة ، ناهض الحجة ، يماشى العقل فى غاياته ومراميه ويساير الطبيعة فى أو امره ونواهيه . . لايضع للرقى حدا . ولا يسد على العقول مجالا ، ولايحرم ماتشعر النفس بضرورته من المباحات ، ولا يضيق مااتسع من المحاولات ، وأن يكون مرنا يتسع لما يجدُّ من الآراء العلمية ، ولايستعصى على مايثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ؛ وما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية .

فهم يرجون من الدين أن يقتصر على إرشادهم إلى طريق الأخلاق والآداب والفضائل والكمالات دون أن يحاول تحديدها ، تاركا للعقول حرية التطور فى الشعور بها ، وبلوغ الغاية التى تنتظر منها .

فإذا كان لابد للدين من شريعة ، تطلبوها شريعة عامة تنص على الحقوق الطبيعية ، وعلى وجوب تحرى العدالة ، وعلى إقامة الأحكام على أرسخ الأصول وأحكم القواعد . دون أن تضع للنزعة التشريعية فى الإنسان حدودا لايمكن تعديها وللحوادث والوقائع أحكاما لايصح أن يعدل عنها إلى غيرها مما يثبت أنه أدنى إلى العدل مما وضعه القدماء لها . .

فهم يريدون أن تكون شريعة الدين أصولا أولية ومبادىء رئيسية ، تصح أن تكون دستورا للمشرعين ، لا أن تكون شريعته تفصيلية إن انطبقت فى عهد من العهود على الحوادث شذت عنها فى عهد آخر ، وباينتها فى أكثر إجراءاتها ، وفى الذرائع التى يتذرع بها للوصول إلى توضيح الحقائق . . .

فهذه الطبقة بما تسرب إلى كثير من آحادها من الشبهات الفلسفية ، ما تشبعوا به بحكم تربيتهم المدرسية أو المخالطات الاجتماعية من الأصول العلمية ، وبما أثر فى نفوسهم مما تكتبه المجلات الإلحادية من الاستهانة بالدين ، تنشأ بهم حاجة ، قوية إلى الدليل المحسوس ، وإلى الحجة القوية ، فيتطلبون أن يجدوها فى الدين نفسه لا فى القائمين عليه من حفظته ، فهم على ضعفهم أشد على الدين من العلماء المتبحرين فلا يغفرون منه ما يغفره أولئك ، ولا يتسامحون فيما يتسامح به كبار العقول ، لذلك يكثر الملحدون فى هذه الطبقة ، ويجمد بعضهم فى الإلحاد إلى حد الاستعصاء .

وبالنظر لعدم شعورهم بهول ذلك المجهول الضخم ، الذى يشغل العقول القوية ويصرفها عن كل أمر غيره ، تراهم يذهبون فى إلحادهم إلى حد الاستخفاف والسخرية ممن يؤمنون بشىء فوق الطبيعة المادية . . فإن عرض ذكر كبار العقول ، وعرض عليهم ماقالوه فى الدين المطلق ، هزئوا بهم وقالوا : إن العلماء المنتهين ـ لطهارة نفوسهم ، وسلامة صدورهم ـ يقبلون الانخداع ، ولا يوثق بعقولهم فى غير بحوثهم التى مرنوا عليها من عمرهم سنين . .

هذه الطائفة إن شعرت بالحاجة إلى دين صحيح ، تخيلته لبنا سائغا خاليا من كل مايحتاج لتأويل ، أو يستعصى على الدليل الذى يرتضونه هم لاما يرتضيه اساتذتهم العارفون . .

ولما كانت هذه الطائفة هى سواد المتعلمين والقابضين على أزمة الأعمال ، كان موقف الدين حيالهم ـ وبخاصة فى هذا العهد عهد الشكوك والمجادلات ـ من اصعب المواقف . وكثيراً ما هاجمه أفراد من فطاحل كتابهم على طريقة الدس ، فقوضوا دعائمه فى نفوس كثير من طلاب العلم ، فأخرجوهم إلى باحات الإباحة الحيوانية ، لأن أفراد هذه الطبقة لايصاوفون فى أنفسهم الشكائم التى تردعهم عن الغى ، فيخوضون فى حمأة الرذائل ويكونون مثالا لغيرهم فى التحلل من جميع التبعات الأدبية .

اما الطبقة الثالثة ـ وهم العامة ـ فهم مقلدون فى دينهم ودنياهم ، وإنما ينحصر تحديهم فى أهل الطبقة الثانية فيتلقون عنهم فى صمت جميع مايفعلون وما يقولون ، ثم يصبونه فى قوالب عاميتهم ، فيصبح إن كان ماتلقفوا شرا ، رجسا على رجس . . فهؤلاء ـ فى الواقع ـ مجنى عليهم يستحقون الرحمة من الوعاظ والمرشدين .

هذه حال الطبقات الثلاث المكونة للجماعات البشرية فى هذا العصر حيال الديانات ، وما يتطلبونه من دين . . فلم يبق علينا إلا النظر فى هل « الإسلام يفى بجميع هذه الحاجات العقلية والنفسية ، فيكون هو الدين العام الخالد ؟ »

شأن الإسلام مع العلماء المنتهين

قلنا إن العلماء المنتهين لا يهمهم من دين إلا أن يصعد بأرواحهم إلى بارئها ، لتتصل به في عالمها ، وتستمد منه القوى في عروجها . أما ماعدا هذا من الأغراض فلا يعنيهم أمره ، لاستغراق عقولهم في ذلك المجهول الضخم الذى يحيط بهم . والإسلام من هذه الناحية أصلح مايكون سكنا لأرواحهم ، ومتنفسا لعقولهم ، وموجها لميولهم . فهو - إن شاءوا - هجم بهم على معقل اليقين، فنقلهم من عالم الروح إلى درجات لم يحلموا بها ، وإن شاءوا جال بهم من عالم الشهادة فى نواح تزيدهم أكبارا لهذا المجهول الضخم ، وتضاعف من اهتمامهم بكشف الحجاب عنه والوصول إلى سر لبابه .

أول مايفاجئهم من هذا الدين قوله تعالى :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ » .

فإذا قرأوا هذا غشيهم من احترامه ماغشيهم ، وخالط هذا الاحترام قدر كبير من التعجب والدهش . فإن دينا مضى عليه نحو أربعمائة وألف سنة ينص كتابه على أن الدين فطرة فى النفس ، وأن هذه الفطرة نفسها هى الدين الحق . . لهو أمر يقضى بأشد درجات الحيرة ، ويدعو إلى تفكير عميق فى حقيقة مصدره فإن مثل هذا القول البعيد الغور لم يتأت لكبار الفلاسفة الأقدمين ، ولايمكن أن يدرك خطورته البشر إلا فى هذه القرون الأخيرة ، ومؤداه أن النفس مقطورة على التدين ، وأن الإسلام هو نفس تلك الفطرة . فالإسلام ليس بتقاليد وموروثات وآراء وشروح ، ولكنه تلك الفطرة مجردة من كل شائبة . . وهى تؤدى بالإنسان - بقواها الذاتية - إلى أقوم الطرق وأعدل المذاهب ، وتكون هذه الطرق والمذاهب عرضة للتطور على نسبة مايدخل فيه عقله من التطورات المتعاقبة . . فلا يعقل - والحالة على ماترى - أن يوجد مذهب أرسخ من هذا

المذهب أساسا ، ولا أشد على النقد مراسا ، ولا أبعد فى المعقولات غورا . وقد تسمى بأخص صفاته وهو « الإسلام » ، ومعناه ، الاستسلام إلى الله متجرداً من كل ما أنتجه الفكر ، وما أثمره النظر ، وما ورثته النفس ، وما صورته المخيلة . ودليلنا على هذا الفهم من الكتاب حال إبراهيم فى أول أمره ، وقد نشأ فى قوم يعبدون الكواكب ، كما روى عنه الكتاب الكريم فى قوله تعالى :

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفلين * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّى ، لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى ، هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

هذا دين ابراهيم الذى قال فيه الكتاب : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » :

والدليل من السنة على أن الإسلام هو الفطرة مجردة من كل شائبة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، أى أن كل مولود يولد مفطورا على الدين الخالص الذى هو الدين الحق وحده ، وإنما أبواه يلقنانه من التعاليم ماهم عليه منها ، وهو ينافى الإسلام جملة وتفصيلا ، ولأنه لا يعتد بدين غير تلك الفطرة نقية ساذجة حرة مستعدة لقبول كل حسن ، ودفع كل قبيح ، وللتمذهب بكل ما يقوم على صحته الدليل ، والاستعاضة عنه بغيره لاح له أنه أقوم منه سبيلا .

فهذه الفطرة ، فطرة المولود قبل أن يلقن دينا من الأديان ، وتعليما من التعاليم ، هو الإسلام الذى جاء القرآن بالدعوة إليه ، فهل صادفت فيما بين يديك من المذاهب الفلسفية مذهبا فى الدين أرقى من هذا المذهب ، وأساسا له أبعد غورا من هذا الأساس ؟ .

فالإسلام لا يؤخذ بالتلقين ، وإنما هو الطبيعة نفسها خالصة من جميع المذاهب البشرية ، فكل مولود يولد مسلما بطبيعته ، فيهتدى إلى خير المذاهب فى مدى حياته بعلمه وعقله وتفكيره ، ولا يحتاج لمن يرشده إليه . فهل بعد هذا مرمى لمن يريد أن يذهب فى تحليل الدين إلى أبسط عناصره ، وهل من فلسفة فى الأرض تقوى على دحضه ، وقد أخرجه القرآن من دائرة الأمور العقلية ، وأودعه حظيرة الشئون الفطرية الطبيعية ؟ .

فالعالم المنتهى يذهل وتأخذه الحيرة ، متى رأى أنه أمام مذهب هو نفسه المذهب الذى حصله وقام عليه بعد أن احترق رأسه تفكيرا فيه ، وذابت نفسه تعطشا إليه .

فإذا أراد هذا العالم المنتهى أن ينظر فى أسلوب هذا الدين ، وفى تطبيق هذا الأصل على مافيه من العقائد والعبادات والمعاملات ، رآه قائما على أكمل الوجوه وأحكمها . وأول مايود الوقوف عليه منه مسألة العقيدة بالخالق ، وهى المسألة التى تلاعبت بها أهواء أهل الملل ، فذهبوا فيها مذاهب شتى ، وتحكموا فيها إلى مدى بعيد . كأن الخالق مخلوق مثلهم تجرى عليه الأحكام التى تجرى عليهم ، أو هو مما يمكن تناوله بهذا العقل الكليل . . فإذا وقف العالم المنتهى على ماهو بصدده رأى مايكاد يذهب بلبه تعجبا ! رأى أن هذا الدين قد سد على ذويه جميع السبل التى تؤدى إلى ذلك الفضول المزرى بكرامة العقول، فوجد القرآن يقول:

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » ويقول : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » . ووجد رسول الإسلام يقول:

ووجد رسول الإسلام يقول . « إن الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم» ، اى أن الملأ الأعلى وهم

فى عالم الروح ليطلبون العلم بالله كما نتطلبه نحن ، ونحن فى عالم الأجساد ، فتساوينا جميعا فى الجهل به ، وإن اختلفنا فى وسائل التحصيل هذا الاختلاف الكبير .

هذا نص الكتاب والسنة ، فلا عجب إن أصبح القول بالعجز عن معرفة الله عقيدة إسلامية ، فقد روى عن أبى بكر أنه قال :

« العجز عن درك الإدراك إدراك » وهو أبلغ من الإشارة إلى مجرد العجز ، فقد اعتبر الصديق هذا العجز نفسه علما . . وهو قول فى منتهى الإصابة وبعد الغور .

ووضع الأصوليون الإسلاميون هذه القاعدة العملية التى تقطع السبيل على كل محاولة فقالوا : « كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

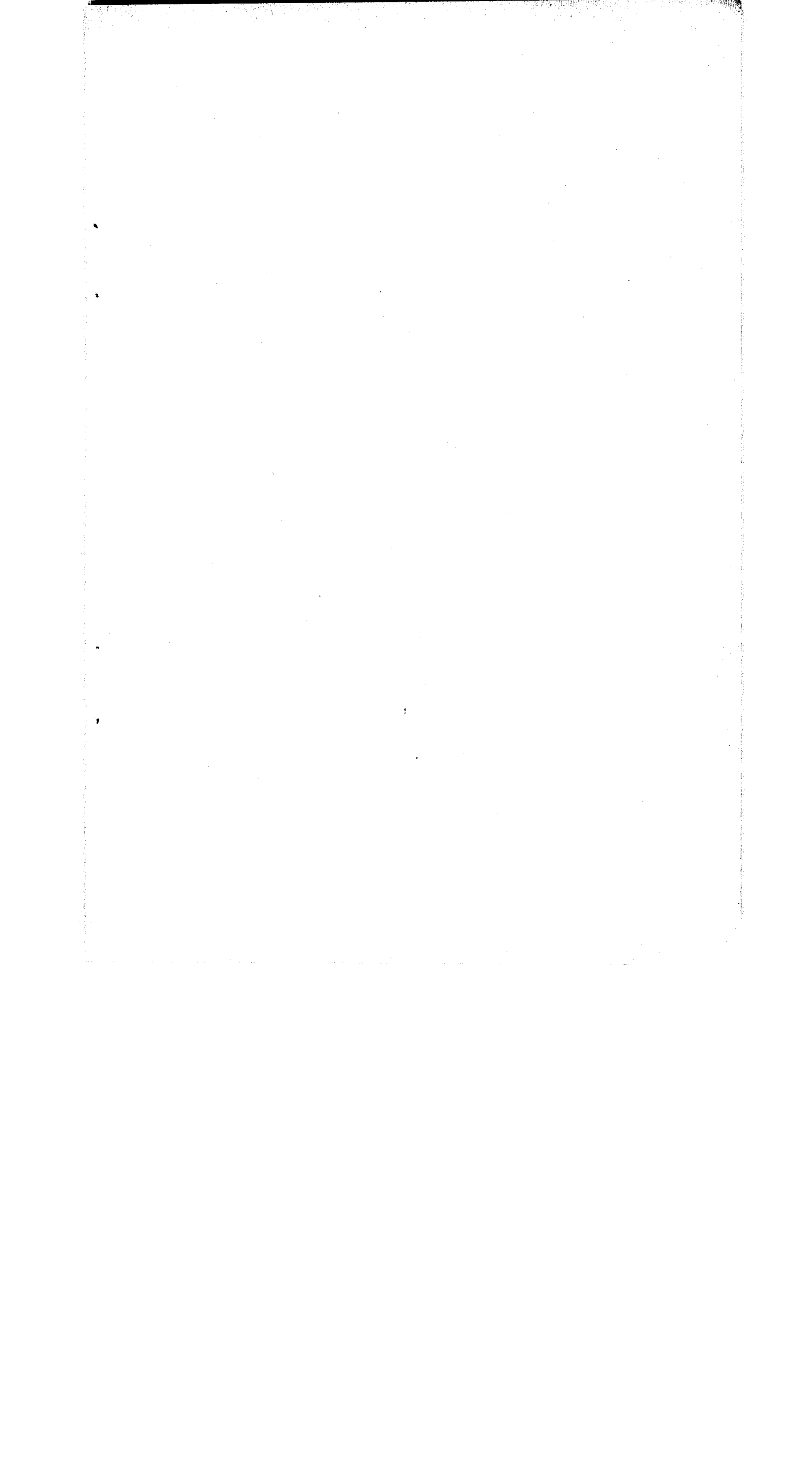
وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال ، كما ورد فى مجموعة كتبه وخطبه الموسومة بـ « نهج البلاغة » وقد سأله بعضهم أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا ، فغضب الامام وقال له فى كلام طويل بليغ .

« واعلم أن الراسخين فى العلم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم عن كنهه رسوخا ، فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » . إلى أن قال :

« كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم ، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح

عقولهم ، وأشهد أن من ساواك بشىء من خلقك فقد عدل بك ، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك . ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك ،وأنك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول فتكون فى مهب فكرها مكيفا ، ولا فى رويات خواطرها فتكون محدودا مصرفا » .

هذا كلام جليل ، فإن لم تصح نسبته إلى أمير المؤمنين على، فهو على آية حال من مولدات المسلمين ، وفيه دلالة على حقيقة مذهبهم فى هذه المسألة الأولية . . فإذا وقف العالم المنتهى على هذا التفصيل ، وسرح طرفه فى غيره من المقررات الإسلامية ، وأدرك أن هذا الدين قد بنى كله على أصله الأصيل ، وهو أنه هو الفطرة التى تولد عليها كل نفس إنسانية ، وأن كل ماجاء فيه من التعاليم فى الكتاب والسنة النبوية قائم على ماتتطلبه هذه الفطرة ، ومايقتضيه تطورها فى الكمال ، وهذه الفطرة ـ كما يشعر به كل حى سلطانها العقل ، وطريقها العلم ، ودليلها الواقع ، وعدوها كل ماخالف هذه الشريعة . . فهل نص الإسلام على كل ذلك نصوصا لاتقبل التأويل ، وقام صرحه الشامخ عليها فى كل أدوار، فى خلال العصور ؟ نعم . . وسنبين ذلك تفصيلا فى فصولنا المتتابعة التى تحدد فيها شأن الإسلام مع اهل الطبقة الثانية .



شأن الإسلام مع الاوساط

قلنا إن طائفة الأوساط ، ومن فى مستواهم من المفكرين ، أول شيء يتطلبونه من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، فما هى محجة هذا الدين وماهى حجته التى يعتمد عليها حيال الأمم والأجيال البشرية ؟ وهل كان للناس به حاجة ، وهل لاتزال هذه الحاجة داعية إليه ؟ أم جاء ليزيد عدد الأديان واحداً ، ويوسع شقة الخلاف بين المتدينين وقد بلغوا منه الحد الذى ليس وراءه مذهب لمستزيد ؟

لقد سبق أن أوضحنا ان الإسلام هو الفطرة التى فطر الله عليها الخلق ، فلا نعود إلى ذلك الكلام ولكننا نحيل القارئ إليه ، ونزيد عليه هنا قولنا :

يعلن الإسلام قبل كل شيء بأنه دين عام أنزل للبشر كافة ، وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم النبيين ، تم به عهد الوحى الإلهىّ ، وخلى بين الإنسان وعقله ، بعد أن خلع الحد الذى يستطيع معه أن يستقل بهداية نفسه ، فقال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ الاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » : وقال « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ انِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقال : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

فبأى شيء أرسل خاتم النبيين ، وأى دين حمله إلى الناس كافة يصلح أن قيمهم على اختلاف بيئاتهم ، وتباين عقولهم ، على الصراط الذى يؤدى بهم إلى الغايات البعيدة من الترقيات الصورية والمعنوية ؟

يصرح الإسلام بأنه لم يأت الناس بدين جديد ، ولكن أتاهم بالدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين كافة من أول أبى البشر الثانى نوح إلى عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال فى نص لايحتمل التأويل ، ولايقبل التحريف :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذَّى أَوْحَيْنَا الَيْكَ ، وَمَاوَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ،

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَاتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ الَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أى لاحجاج ولاخصومة) : اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

هذا كلام صريح فى أن الإسلام هو الدين الذى أوحاه الله إلى أول المرسلين بعد آدم ، وما زال يجدد الوحى به لكل رسول حتى خاتم المرسلين ، وقد تولى القرآن نفسه شرح هذا الإجمال ، فقال : إن الدين الأول هو القيام على الفطرة وعدم التفرق فى مذاهب التدين . وهذا كلام صريح فى الدعوة إلى توحيد الأديان وحكم بات بأن التفرق فيها ، على وحدة أصلها ، خروج عليها جميعا . . فإن الفطرة الإنسانية مادامت واحدة فى صميم كل نفس ، فلا معنى للاختلاف فى مقتضياتها ، إلا أن يكون ذلك بغيا من القائمين عليها ، لتسخير الناس لإراداتهم ، وذهاب كل طائفة منهم بفريق من البشر يستغلون جهالته لإشباع مطامعهم . فأمر الله رسوله أن يبرأ إلى الله من ذلك ، ويصارح به الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فقال : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ، وأن يعلن إيمانه بجميع الكتب إجمالا ، وأن لايخاصمهم ولا ينابذهم بل ، وأمر أن يعدل فى الحكم فيهم ، راجيا أن الله يجمع بينه وبينهم .

وقد طبع الإسلام كله بهذا الطابع الألهى ، حتى أن صيغة الإيمان التى أمر المسلمون أن يقولوها أصرح ما يمكن أن تكون اعلانا له وإليك نصها من سورة البقرة : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ الَى ابْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ

مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » .

وقال فى موطن آخر من تلك السورة : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

وقال فى سورة آل عمران : أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وقال فى هذه السورة نفسها : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

وقد شدد الله فى وجوب الإيمان بجميع الرسل ليقيم مبدأ توحيد الأديان على أقوى أساس ، فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » .

كل هذه نصوص صريحة فى أن الغاية التى قصد إليها الإسلام بإعلانه إنه ليس بدين جديد ، ولكنه هو الدين الذى أنزل على جميع الأنبياء ، هى أن ينشر هذا العلم الصحيح الذى يجهله جميع الآخذين بالأديان من البشر . فالدين بمقتضى مذهبه هذا لا يجوز التخالف فيه ، وكيف تتخالف وأساسها الفطرة ، وهى واحدة لدى الناس على اختلاف بيئاتهم وأجيالهم، وانما جاءهم الخلاف من الاوهام والأهواء التى تناول بها قادتهم العقائد بالشرح والتأويل والتحريف فى خلال العصور، حتى تحقق مطامعهم فى تسخير النفوس واستغلال جهالتها ؟

هذا تجديد خطير الشأن فى نظرية الدين، فطن إليه الأولون فسارعوا إلى الدخول فى الإسلام بغير دعوة ، حتى قدر من دخل فيه فى قرن واحد بمائة مليون نسمة ، ومنهم كثيرون من قادة الأديان وأولى العلم . ولكن هذا التجديد العظيم جهله سواد المسلمين منذ أجيال كثيرة فأهملوا التنويه به ، وتجاهله الاجانب ، فوقف انتشار الإسلام عند حد ، وفقد أهله الروح التى تحرك أهل التجديد إلى العمل المتواصل .. فجمدوا حيث هم ، ولكن هذا الأمر الجلل سيتضح عند ما ينضج أهله فى العلم فيستولى على قلوبهم، ثم يتعداهم إلى غيرهم، حتى يعم نوره الأرض :

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

وإذا كان الإسلام قد قرر بأنه هو الدين الفطرى الذى أوحى إلى كل رسول، وأنه جاء لتوحيد الأديان كلها بردها إلى أساسها الأصيل ، وإن ما فرق الناس سوى بغى قادتهم طمعا فى المال والسلطات، فقد حمل الأمة التى تأخذ به تبعة من أكبر التبعات ، وهى أن تكون للناس علما يهتدون بهديها فى كل طور من أطوارهم ، ومنارا يهتدون بنورها إذا ضلوا فى متاهات مذاهبهم فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

فكل مسلم ، بحكم هذه التبعة ، يجب أن يكون علما من أعلام الهدى، وسفيرا إلى من حوله يلفتهم إلى هذه الحقيقة الثابتة ، بهذه الحجة الناهضة . لهذا كله صار الإسلام دينا عاما ، وسيتضح لك مما يلى من البحوث أن كل أوامره ونواهيه ،

ومناهجه ومراميه ، بنيت على هذا الأساس بحيث تصلح لجميع الناس على السواء، وتماشى تطوراتهم المادية والأدبية فى كل الأجيال .

فهل يطمع الإنسان أن يعتنق مذهبا أوضح من هذا محجة ، وأقوى حجة ، وأبعد مرمى ، وأصدق مغزى ، وأولى بالإنسانية فى تطوراتها المتعاقبة ، وأجدى عليها فى انقلاباتها المتوالية ؟

أى دين فى الأرض يقوم على غريزة طبيعية فى النفس ، ثم يعتمد فى بناء صرحه على سلطان العقل ، فيجعل من هذا البناء السامق لا شكلا غير قابل للتحول، ولكن عملا هندسيا دقيق الصنعة يقبل التحويل فى كل جزء من أجزائه ، ليطابق الواقع ويماشى الحاجات دون أن يصاب أساسه بوهن ؟

ثم ماذا تنتظر من رسول يقول إنه خاتم المرسلين أكثر من يعقد لك الدين على أساس طبيعى لا يمكن هدمه بل ولا وصول المعاول إليه ، وأن يجعل العقل دليلك فى كل ما يؤتيك به من عقائد وعبادات ومعاملات ، وأن يجيئك بنظرية فى التدين تعتبر أقصى ما يهدف النظر العلمى إليه ؟

أليس الذى يأتيك بكل هذه النهايات جديرا بأن يكون خاتم النبيين ، والكتاب الذى يقدمه لك أهلا بأن يكون خاتمة للوحى الإلهى ؟

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » *

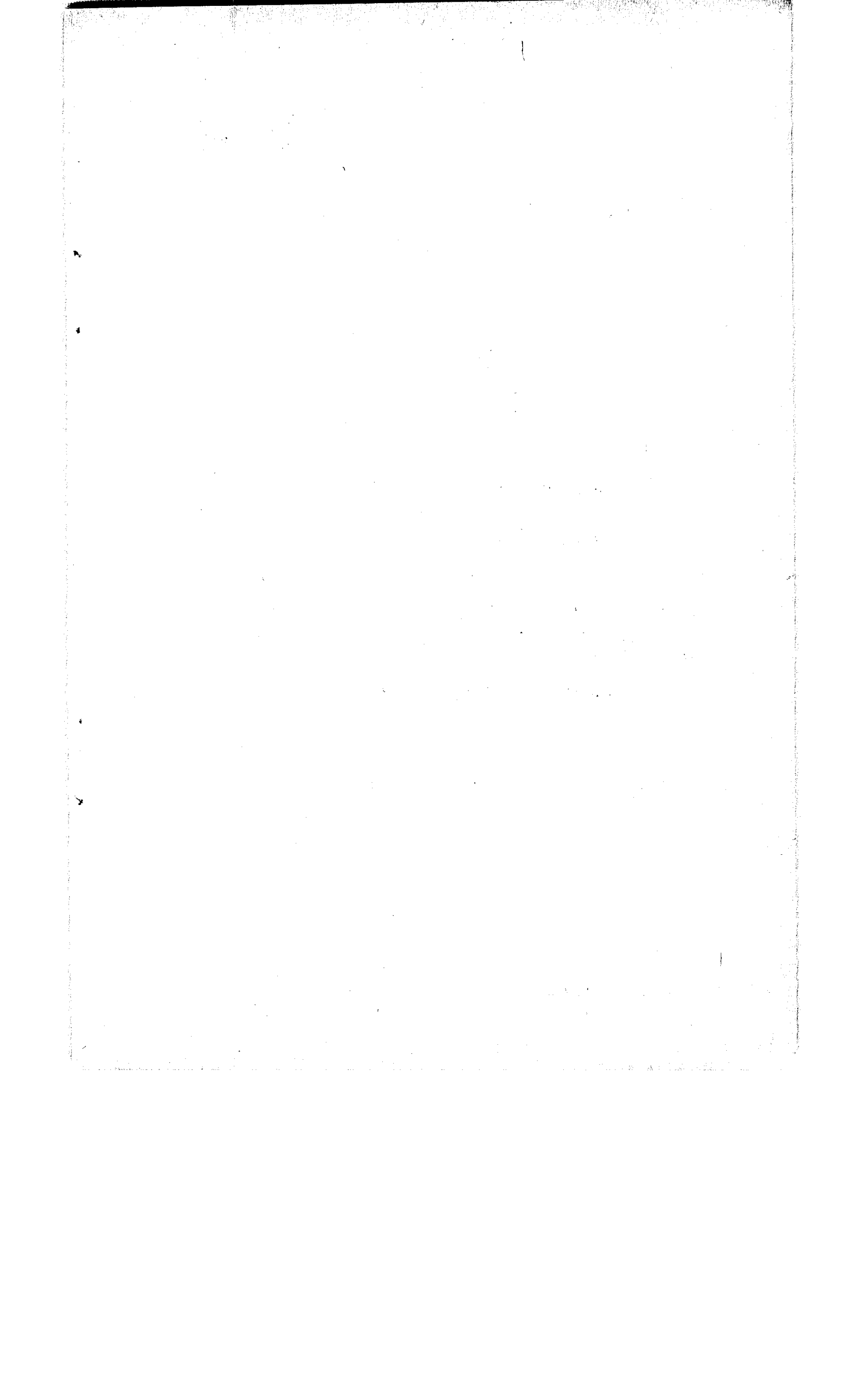
« قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

الفصل الثاني

الإسلام

وسلطان العقل والعلم

* الإسلام يعلن سلطان العقل والعلم
* الإسلام لا يضع للرقى حدا
* الإسلام لا يحرم ماتشعر به النفس من المباحات
* الإسلام مرن يتسع لكل ما يجد من الآراء العلمية
* أسلوب الإسلام فى بناء الأخلاق .



الإسلام يعلن سلطان العقل والعلم

قلنا إن الأوساط يتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، وبينا لهم محجة الإسلام وحجته ، والآن نأتى على مطلب ثان لهم وهو أن يكون الدين ماشيا للعقل فى غاياته ومراميه ، ومسايرا للطبيعة فى أوامره ونواهيه فنقول :

إن الانقلاب الكبير الذى أحدثه الإسلام فى أمر الدين أظهر ما تكون عوامله فى هذا الموطن . موطن المناداة بسلطان العقل . والمجاهرة بسيادة العلم ، فسمع الناس لأول مرة فى تاريخ الأديان كلمات : تفكير ، و « نظر » و « برهان » و « تبعة شخصية » و « بطلان للتقليد » .

كان الناس قد استعدوا بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان ، والتقليد لغير معصوم ، للدخول فى دور الرشد والاستقلال الذاتى عن الأوصياء والقامة ، والمتحكمين فى دور نفسياتهم وعقلياتهم ، فأرسل الله محمدا بالإسلام لافتتاح هذا العهد الكريم ، والنداء بالدين العام الخالد ، الذى أريناك أى شىء هو ، فكان أول شىء وجه إليه عنايته تحطيم القواعد التى يقوم عليها التدين فى مرحلة الجهل وهى التقليد الأعمى ، وإهمال النظر الشخصى وإغفال التفكير الحر ، ومنابذة العلم ، إلا ما كان منه موافقا للدين فى نظرهم . ومؤيدا لسلطان المتحكمين فى إرادات الناس وعقولهم ، فأهاب الإسلام بالناس إلى اعتبار العقل ، وسيادة العلم ، ودعا إلى النظر والتفكير ، وتطلب البرهان ، واشتد فى هذه الدعوة إلى حد أنه لو أحصى ماجاء فى القرآن من قوله تعالى : (أفلا تعقلون) (لعلهم يتفكرون) (أفلا تذكرون) الخ الخ لتعدت العشرات . ولو أضيفت إليها الآيات التى تطالب الناس بتنبيه قواهم العقلية ، ورفض مالا يعززه برهان ، وترك كل مالا يؤيده علم ، ونبذ التقليد للآباء (الخ) لبلغت المئات فإن القرآن كله قائم على هذه الأصول ويدعو لها ، حتى ليتجلى لمن يتلوه أنه إزاء انقلاب فكرى خطير الشأن ، لا شبيه له فى تاريخ القرون الماضية ، بقصد إحداث ثورة على كل قديم ، إلا ما وافق العقل والعلم منه .

وكيف كان يتأتى للإسلام أن يسلك غير هذه السبيل فى حل الأديان المعقودة على أسس التقليد الأعمى ، والقائمة على قواعد الاتباع المجرد من النظر ، إلا بهدم

هذه الأسس والقواعد البالية ونسفها نسفا ، حتى يشكك هذه الأشباح الإنسانية فيما تدين به ولا تفكر فيه ، وفيما تتعبد له ولا تستأنس له بحجة .

نعم لاسبيل للإسلام إلى النفوذ لقلوب الأمم غير محق الحواجز الفولاذية التى وضعها حولها قادة الأديان . ليحجبوا عنها أنوار العقل ، ولكى لا تنبض إلا بإرادتهم ، ولا تتحرك إلا بإملائهم .

أمسك هؤلاء بمخنق الإنسانية فاستسلمت لهم طائعة أجيالا ، لأن العقل لم يكن قد نضج للاستقلال بنفسه . فكان من مصلحة هذه الأكداس البشرية أن تقاد بمثل هذه الشكائم الحديدية . فلما بلغ الإنسان سن الرشد نسخت هذه السنة وتولد عهد جديد اقتضت الحكمة الإلهية أن تجعل على رأسه محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقام به خير قيام ، وأرساه على أرسخ الوطائد ، ثم تركه لرجال جروا على سنته ، فانتشر الإسلام فى نحو قرن من الزمان بلا دعوة ولا إكراه مالم ينشره دين غيره إلا فى قرون ، وبالحديد والنار . فقد كان غزاة أوربا يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعوتهم فى تلك الظروف الرهيبة ، ولهذه الدعوة تاريخ أى تاريخ ، لانذكر حرفاً منه إلا إذا هاجنا هائج إليه .

فاجأ الإسلام الناس بمبدأ لم يكونوا يحلمون به ، ولا يتوقعون أن يسمعوه فى عهد من عهودهم ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لاعقل له » . وكانت سنة قادة الأديان قبل ذلك فى مشارق الأرض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر : « أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى » .

ثم عزز الإسلام هذا المبدأ بمبدأ ثان ليس بأقل من الأول دعوة إلى الثورة فى الدين ، وهو النعى على التقاليد والموروثات ، وعلى المقلدين للآباء والأجداد ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فقال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ » وقال : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ، قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ » .

وليس بخاف أن الجرى على سنة السلف من أخص صفات المتدينين ، وأكثر مادب الفساد إلى الأديان كان من هذه الناحية ، حيث تتقوى العقيدة الدينية بالعاطفة القومية ، فترسخ فى النفوس رسوخ غرائزها الطبيعية وهذه علة إبقاء الأمم ، حتى الراقية منها ، على عقائد لا تحتمل النظر المجرد فضلا عن النقد ، ولذلك تشدد الإسلام فى هدمها إلى حد أن هذا التشدد اتخذه أعداؤه عونا لهم فى إبطال دعوته ، وإثارة النفوس لكراهته ولكنه لم يبال بذلك لأن نشر الدين العام الخالد – والناس فى مفتتح عهد الأخوة العالمية — لا يتأتى إلا بالتعفية على هذه الآثار الموروثة ، التى تصد الأمم عن الوحدة المرجوة .

وهذا الجهد لا يثمر ثمرته المنتظرة إلا بإيقاظ العقل ، وتنبيه غريزة التفكير والنظر الحر ، والنعى على الآخذين بالظنون والأوهام ، فأكثر الإسلام فى هذه المواطن من الدعوة إلى كل ذلك فى ألوان شتى لتبلغ مواطن الاقتناع من الصدور ، وتدفع بالإنسان إلى تلمس المخرج ، فقال تعالى :

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَو آذَانٌ يَسْمعُونَ بِهَا ، فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » « لاَ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ » ، إِيتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ، « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ » ، « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

« إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ

رَبِّهِمُ الْهُدَى » « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » ، « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

ثم شفع هذه الآيات الناعية على المعتقدين تقليدا بالتنويه وبالتبعة الذاتية، وبأن أحدا لايغنى عن أحد شيئا ولو كان نبيا مرسلا ، أو ملكا مقربا ، فقال :

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى * وقال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * وقال : « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » وقال : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » وقال : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا » وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا (بالبناء المجهول) مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (بالبناء للفاعل) لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » .

هذه الآيات ، ومئات من أمثالها ، تساور السامع من كل مظان الإقناع فلا تزال به تكافح التحجر التقليدى فيه حتى تكشف عن الفطرة الإنسانية ، فتهب تتطلب الفهم وتتحرى الدليل ، ولا تسكن إلى الاتباع دون أن تعرف فى أى طريق يجرى بها ، وإلى أية غاية يؤديها .

وقد رفع الله من شأن العلم حتى جعله النور الذى لامحيص لكل حى عن طلبه، وأشار بذكر العلماء إلى حد أن اعتد بشهادتهم فى حقه ، فقال تعالى :

« يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » قدرها ابن عباس بسبع مائة درجة وقال : « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » .

ومن أشد مايدفع بالنفوس لطالب العلم، ومن أعجب ماأثر من الإشادة بفضله، قصر الصفات العليا التى يتهالك الناس على الحصول عليها ، على أهل العلم دون سواهم لأنه لا يبلغها غيرهم ، فقال تعالى :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » وقال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ » بكسر اللام فيهما .

أما ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب فلا يكاد يحصيه متتبع منه قوله : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » .

وقوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » والفقه معناه الفهم والعلم ، وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

والمراد بالعلم مايرفع الجهل وينمى العقل وينبه ملكات النفس ويكشف الحقائق الوجودية ، ودليلنا على ذلك لفت القرآن الناس إلى البحث عن أسرار الكون وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله تعالى :

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » وقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » وقوله : « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا »

والتفكير فى خلقهما يؤدى حتما إلى العلم بهما ، وهو مراد القرآن ، ودليلنا العملى على ذلك أن العرب بعد وفاة النبى بست سنين (كما يقول العلامة درابر) ، شرعوا يطلبون العلم ، فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه ، وصاروا أئمته . . فلو كان الإسلام يريد بالعلم العلوم الدينية ، لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون فى العصور المتأخرة .

ومن أغرب مايرويه الراوون فى تاريخ الإسلام ، أنه لاعتماده على العقل والنظر والعلم والبرهان ، قرر الأصوليون أن الإيمان التقليدى فى عقائده غير مقبول ، فلابد لكل معتقد أن يكون لديه الدليل على كل مايأخذ به بقدر درجته من العلم .

فهذا المبدأ فى الإسلام يوجب الدهش والحيرة ، إذ لايوجد مايشبهه فى الأديان ولا مايقرب منه . ولكن لو علم الباحث فيه أنه دين عام خالد لزال دهشه ، فإن الأمم وقد ضربت فى العلوم بأوفر نصيب ، وستنال منها مالا يخطر ببال ، لاتقبل عقيدة إلا على هذا الأسلوب .

على هذا النحو فتح الإسلام الأعين للنظر ، والعقول للفهم ، والقلوب للشعور . فنهض عدد من رجال أسعدهم الحظ بمعاصرة خاتم المرسلين بنشر هذه النفحة الإلهية فى الأرض ، فتألبت عليهم الأمة التى هم من صميمها ، فارتدت جزيرة العرب كلها عن الإسلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتصايحت إلى السلاح ، فنصر الله هذه الفئة القليلة على هذه الجماعات الغفيرة ، ثم اندفعت إلى خارج بلادها تنشر هذا النور فى بقاع خيم عليها الظلام قرونا ، محاولة أن تخرجها إلى النور .

قال العلامة «سديو» المؤرخ الكبير ومن وزراء فرنسا السابقين فى كتابه تاريخ العرب : « لقد كان المسلمون متفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة ، فنشروه حيث وطئت أقدامهم ، وكانوا هم السبب فى خروج أوروبا من الظلمات إلى النور » .

فما يطلبه الأوساط من الدين فى هذا الموطن موجود فى الإسلام على أوسع مايرجون ، وقد بنى الصرح الإسلامى الباذخ على هذا المبدأ الكريم ، كما سنبينه فى مطالبه الأخرى .

الإسلام لا يضع للرقى حدا

المطلب الثالث للأوساط من الدين ، أن لا يضع للرقى حدا ، وأن لا يوصد على العقول مجالا . .

أما الإسلام من هذه الناحية ، فلا أقول إنه يفى بهذا المطلب فحسب .. بل أقول إنه يفرض الترقى على الآخذين به فرضا ، ويدفع بهم إلى كل باحات العقول دفعا . وإلا فكيف نفسر انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلة المسودة ، إلى مصاف الأمم العالمة السائدة . أستغفر الله بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافلة حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف الكافة لها بالزعامة فى ذلك قرونا طويلة ،كانوا فيها يؤمون عواصمها ، يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصنائع والفنون . ولايزال المؤرخون من جميع الدول يرددون هذه الحقيقة . أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقى فرضاً ، ولا يكتفى بأن يسمح به سماحا .

إن قول الله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » وقوله : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » وقوله : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ »

وقول النبى ﷺ : « اطلبوا العلم ولو بالصين » : « خذ الحكمة ولايضرك من أى وعاء خرجت » ، أى : لوخرجت من فم آثم أو كافر ، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسيتها شىء . . كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم ، ودفعت بهم إلى مباحثه دفعا ، والعلم يؤدى الى الترقى لا محالة ، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر .

أى علم ؟ العلم على إطلاقه بكل مايحتمله لفظه ومعناه ، وبكل مايؤدى إليه فى الحياة . . فإن الدين يفرض على ذويه النظر فى السموات والأرض ، والذى يقول إنه يضرب للناس الأمثال ومايعقلها إلى العالمون (بكسر اللام) ، والذى يرفع من

شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه والذى يقول رسوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » ويقول : « فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، قلنا إن الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهرا إلى طلب العلم ، وطلبه يهجم بهم على أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها . وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيرا يسيرا ، ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر ، يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك ؟ .

ومن الذى كان يتخيل أن ذاك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة ، وبيده قبس من العلم ، يدعو إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض ، يأخذون عنه ما جعله الله أميناً عليه دون خلقه . . فكان الحافظ لميراث الإنسانية العقلى من ناحية ، والواسطة فى إحيائه ، وتسهيل سبيل الانتفاع به من ناحية أخرى .

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا ، لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لناموس الترقى وجوبا ، لا أنه قد أباحه لهم اختيارا ؟

هل وضع الإسلام لهذا الترقى حدا ؟ وهل للترقى فى نظر الإسلام حد يقف عنده ؟ .

إن الدين الذى يقول لمتبعيه : « وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » ، يفتح أمامهم باحة اللانهاية ، فلا يدع فى أنفسهم حاجة إلى السؤال عن الحدود والغايات . . لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم بست سنين ، اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة ولا عجب فإن الدين الذى يقصر الصفات العليا للنفس ، والغرائز الكامنة فيها ، على أهل العلم وحدهم فيقول :

« وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ »

يرون فى العلم ، الحياة كل الحياة .

هل وضع الإسلام لشهوات العقول حدا ؟ هل أوصد فى وجهها مجالا ؟

اللهم لا ، بل أباح لها أن تجول فى كل مجال ، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية ، وقد دعا الإسلام إلى تعلم اللغات الأجنبية ، فنبغ رجاله فى اليونانية والفارسية والسريانية والهندية ، وحضهم

على تعليم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية ، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر الذى يجىء من قبلها ، كالعلوم الطلسمية (بكسر الطاء وتشديد اللام مفتوحة) والسيمياء وأسرار الحروف والتنجيم الخ الخ .

ومن الناس من يخطر بباله أن الإسلام يسمح بتعلم السحر ، وهو من أخص العلوم الظلمانية ، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به فى الامم ، وألقوا فى النار أحياء . ولا تزال بعض القوانين الأوربية تعاقب من يشتغل به ولو من ناحية التجارب العلمية وإدراك العوامل النفسانية الخفية .

لم يحرم الإسلام من هذا كله إلا العمل به ، حتى قال المسلمون فى أمثالهم «تعلم السحر ولا تعمل به» .

هذا تسامح عظيم ، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية ، فإن الإنسان مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول ، ويتحسس كل محجوب ، ويرمى بنفسه إلى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه ، فالدين الفطرى المساير لطبائع النفوس لا يسمح أن توصد على العقول باحة ، ولا أن يحد لرمايتها حدا . ولو فعل ذلك لكسر الناس كل قفل وضعه ، وتعدوا كل حد رسمه ، وأصبح دينا خياليا يعرف ولا يعمل به ، والإسلام لا يريد إلا أن يكون دين العالمين من ناحية عملية لا خيالية .

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالاشتغال بجميع هـذه العلوم الباطنية والظلمانية ، ولكنهم ألفوا فيها كتبا لا تزال موجودة إلى الآن ، منها المطبوع ومنها المخطوط . . وكثير منها محفوظ بدار الكتب ، وفى مكتبات الأفراد فى كل البلاد الإسلامية .

ومن أغرب ماترويه أن العرب اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ، ووصلوا معها إلى نتائج عملية ، إذ ذكر بعضهم أنه قد نجح فيما تصدى له ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة ، إذ أعلن فى أوروبا وأمريكا بأن الكيمياء قد توصلت إلى تركيب الذهب . ومن الغريب أن العرب جعلوا الزئبق أساسا لمحاولاتهم من هذه

الناحية وقد ثبت أخيرا أن الزئبق هو الذهب مخلوطا بأوكسيد الكبريت، وأنه متى استبعد هذا الأوكسيد منه بقى الذهب خالصا من كل شائبة .

وثبت أيضا ـ كما يقول الأستاذ درابر الأمريكى وغيره ـ أن العرب بحثوا فى مذهب التطور ، ودرسوه فى بعض جامعاتهم بأوسع مما يفعل الاوربيون اليوم، إذ طبقوا عوامل التطور نفسها على المعدنيات .

ولا يبعد أن يثبت أيضا أنهم قد اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومب بقرون كثيرة وجمهرة من رجال العلم فى أوربا يرون أن أسراراً علمية مما كان يعرفه المسلمون لاتزال محجوبة عنهم ، فلذلك نجدهم يدأبون على استخراجها للانتفاع بها إن أمكن .

الإسلام لا يحرم ماتشعر به النفس من المباحات

المطلب الرابع من مطالب الأوساط من الدين أن لايحرم شيئا مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ، وأن لا يضيق ما اتسع من المحاولات، والواقع أن الإسلام ـ بموجب أصوله، وتركيب بنائه ـ دين علم وحضارة وما يؤديان إليه من فتح واستعمار وتنافس وتنازع وغلبة (بفتحتين)، فمثل هذا الدين ينافي ـ بطبيعته ـ الاستكانة والتماوت اللذين يريان على جماعات المتدينين فى الأرض . فلقد كان الرجل فى فجر الإسلام يأتى فيبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الدين، ثم يبادر فيأخذ مكانه من الصفوف، إما مجاهدا لنشر الدعوة ، أو مدافعا يذود الأعداء عن حرم الإسلام. ولهذا رأينا عمر بن الخطاب ، ومن هو عمر ؟ يضرب بدرته شابا رآه بحضرته متخاشعا منكسا رأسه ، قائلا له : « ارفع رأسك فإن التقوى فى الصدر » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ـ على جلالة قدره، وسمو منصبه ـ يسرع فى مشيته كأنه ينحدر من صبب قال أبو هريرة : « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحدا أسرع فى مشيته منه، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث » .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم فى نص صريح عن الغلو فى الدين فقال : « لا تغلوا فى دينكم فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم فى دينهم » وقال : « الإسلام متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

لا عجب فى هذا كله ، فمحمد كان مؤسس دولة عهد إليها الحق أن تحدث حدثا لا مثيل له تاريخ البشر ، تسقط به دولا وتقيم أخرى ، وتنشر فى الأرض أصول الثورة على التقاليد والموروثات ، وتبنى سلطان العقل على أرسخ القواعد، وتبرر الانقلابات الاجتماعية فتجعلها سببا من أسباب الارتقاء . .

لذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة غير مراعين حقوق أجسادهم ، لأن الحدث الجلل الذى أرسل لتحقيقه فى العالم يتطلب أجسادا قوية ، وإرادات حديدية ، وكان يحثهم على المحاولات الرياضية كركوب الخيل والسباحة والرماية والمبارزة بالسيوف .

وقد جاء فى الحديث أنه لحق به فى تهجده رجال كانوا يصلون خلفه ، ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى . فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم فيضعفهم .

وفيه أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص، « ألم أخبر أنك تصوم النهار، تقوم الليل ؟ » قال : نعم يا رسول الله وإنى على ذلك لقادر .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « لا ، بل قم ونم وصم وأفطر ، فإن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك (أى لزائريك) عليك حقا . الخ »

وقال : « من صام الدهر فلا صام ولا أفطر » دعاء عليه .

وفى سيرة النبى والسلف الصالح من هذا الضرب كثير . ولا أظن مؤسس دين أو قائما عليه فى الأرض ينهى أحدا عن الغلو فى هذه المواطن ، بل كثيرا ما شجعوا عليه .

ومن أغرب ما فى هذا الباب أن فى الدين عزائم ، أى أمورا لا تقبل الهوادة فى الأحوال العادية ، ولكنها تقبلها فى السفر والمرض والأعذار المشروعة وتسمى رخصا ، ولكن بعض الناس كانوا يتجاوزون عن هذه الرخص غلوا فى محافظتهم على أوامر الدين ، واعتمادا على قوة بناهم (جمع بنية) ، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله : « إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه » .
وقال : « من لم يأخذ برخصنا فليس منا » .

فهذا غريب من مؤسس دين ، ولكن لو تذكرت أنه مؤسس الدين العام الخالد ، الذى سيكون دين البشرية كلها إلى قيام الساعة ، وأن هذا الدين يجب أن يكون عمليا لا خياليا ، أدركت سر هذا الأمر .

إن أكثر الناس وبخاصة فى هذا العصر المادى ، يشعرون بانقباض فى الصدور إذا ذكر الدين أو ذكر أهله ، لأنهم اعتادوا أن يسمعوا عنه زهدا فى الحياة ، ونبوا عن مباهجها وانصرافا إلى ما بعد الموت لا يدع للنفس متسعا لمتعة مادية وأنهم اعتادوا أن يسمعوا عن رجاله الانقطاع عن الدنيا والإقبال على العبادة وتحريم كل ما يلهى النفس ، أو يروح عن القلب . والواقع أن ما بلغهم أو رأوه ليس بصورة صحيحة للإسلام ولا لأهله الذين عرفوه حق معرفة واتبعوا أسلوبه فى الحياة .

فمن شاء أن يعرف المثل الأعلى للإنسان المسلم ، فعليه أن يدرس ما كان عليه رسول الإسلام من أمور الحياة تاركا كل ما عداه، فليس أحد بأجدر منه بمعرفة مراد الله من الدين ، وما يجب أن يكون عليه الإنسان بين أهله ومواطنيه . فقد روى الإمام الترمذى فى كتاب الشمائل فى إسناده عن الحسن بن على : قال « قال الحسن سألت أبى عن سيرة النبى صلى الله وسلم فى جلسائه ، فقال : «كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش، ولا عياب ولا مشاح . يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب رجاءه فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير.. فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم، ويضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى إنه كان أصحابه ليستجلبونه (وقصدهم من استجلابهم أن يكثروا سؤاله فيستفيدون من أجوبته) ، ويقول «إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه» ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام » .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى المباحات كلها ولا يتحرج إلا من المحرمات ، والمحرمات فى الإسلام محرمات فى العقل والطبع والوضع ؛ فكان يلبس ما يلبسه الناس مسلمهم وكافرهم ، حتى إنه لبس الجبة الرومية ذات الأكمام الضيقة ، والقلنسوة الفارسية المجوسية . وكان يرجل شعره بالمشط ويدهن بالطيب، وكان يتكلم فى كل موضوع مع أصحابه . قال زيد بن ثابت من حديث: « فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا » . وعن جابر بن سمرة قال : « جالست النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم » .

وكان هو نفسه ينشد الشعر ويصغى إلى من ينشده ، ويستحسن الحسن منه

ويجيز من يمدحه به ، وقد أشاد بذكره فقال : « إن من الشعر لحكمة » ودعا لشاعر فقال : « لا فض الله فاك » .

وكان يمزح ويداعب أصحابه ؛ فقد روى أنس بن مالك أن رجلا طلب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايحمله فقال له «إنى حاملك على ولد ناقة» .

فقال: يارسول الله، ما أصنع بولد الناقة ؟ ظنا منه أنه سيعطيه فصيلا .

فقال له « وهل تلد الإبل إلا النوق » .

وروى أنس هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم صادف رجلا اسمه زاهر وهو يبيع متاعا له ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال زاهر من هذا ؟ أرسلنى. ثم التفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل النبي يقول من يشترى هذا العبد؟ مداعبة له.

وحدث المبارك بن فضالة عن الحسن قال: « أتت عجوز للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله: ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال النبي « ياأم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز » فولت المرأة تبكى . فقال النبي « أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز، إن الله يقول« إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا » .

ودخلت عليه امرأة فى شأن لزوجها ، فقال لها النبي « أزوجك الذى فى عينيه بياض ؟» فظنت المرأة أنه يريد بالبياض ما يصيب سواد العين فقالت: لا يارسول الله . فتبسم وقال لها «أتخلو عين إنسان من بياض ؟

حدث سعيد المقبرى عن أبى هريرة أن بعض أصحاب النبي قالوا له يوما يارسول الله، إنك تداعبنا .. فقال : « نعم غير أنى لا أقول إلا حقا » .

فإذا كان رسول الله وهو الذى كان يجوع حتى يشد على بطنه حجرا وحجرين زهدا فى متاع الدنيا ، ويقوم الليل متهجدا حتى ذكر الله ذلك فى الكتاب، وله من مشاغل منصبه ما تنوء به الجماعة أولو الحول والقوة، يصيب من هذه المباحات ما يروح به نفوس أصحابه ، ويستجم به من نشاطهم وقواهم المعنوية ، فهل يسوغ لأحد أن يمثل الدين عابس الوجه قطوبا ، إذا سلك طريقا سلك الناس غيره مجافاة له وهربا من تكاليفه ؟

على أن فى الكتاب آيات لم يجىء لها ضريب فى أديان البشر، وهى قوله تعالى:

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » وقال : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » وقال : « فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً » .

فالدين الذى يصرح بأنه لم يحرم التزين ولا المتاع بالأكل الطيب، ويتخذ رسوله خاتما من فضة، وغاشية لسيفه فيها ذهب، كما رواه الإمام الترمذى فى شمائله، ويدعو إلى الرياضة البدنية حتى المصارعة، وقد صارع هو نفسه وكأنه أقوى الناس عليها قبل الإسلام فصرعه - ولا يخفى ما للرياضة البدنية اليوم من المنزلة عند أرقى الأمم - قلنا الدين الذى يصرح هذا التصريح، ويبيح هذه المباحات، ويكون رسوله من حسن الطريقة فى الحياة على ما علمت، لا يصح أن يمثل للناس على غير صورته الصحيحة فيهرب الناس من وجهه، ويفرون من أهله، ولا يذكرونه إلا فى معرض التكاليف الشاقة، أو أحوال الموت وما بعده .

هذا هو الإسلام من ناحية المباحات .

أما من ناحية الشق الثانى وهو أنه لا يضيق ما اتسع من المحاولات، فكيف يعقل أنه يعمد إلى تضييقها وهو الذى أعطى العقل سلطانه المطلق يجول فى كل مجال، ودفع بالناس فى الحياة غير مقيدين إلا بما تشعر الفطرة السليمة بوجوب التقيد به ؟

إن الدين يقول لأهله : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

والذى لا يقصر العبادة على الأعمال الشكلية التى عرفت عنها، فيعتبر كل ما يقصد به الخير عبادة

فطلب العلم عبادة ، وطلب القوت عبادة ، وتآلف الناس عبادة ، وعيادة المريض عبادة الخ حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن ليؤجر فى كل شيء حتى فى اللقمة حين يرفعها إلى فى امرأته »

فالدين الذى يكون على هذه الشاكلة لايعقل أن يضيق على أحد ما اتسع من المحاولات .

وقد رأيت فى تاريخ أهله أنهم بنوا لدينهم وأمتهم مجدا من هذه الناحية لاتطمس آثاره ، ولا تعفو معالمه ، ولكنها ستزداد وضوحا وجلاء كلما ازداد الناس علما وارتقوا فى معرفة الحق .

الإسلام مرن

يتسع لكل ما يجد من الآراء العلمية

من مطالب الأوساط من الدين أن يكون مرنا يتسع لما يجد الآراء العلمية ولا يستعصى على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية ، والواقع أنه قليل على الإسلام ان يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات ، لأنه دين انطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل ، وإشعار بالتبعية الشخصية ، ونهى عن التقليد . وقد كان الناس إلى عهده أسرى الأوهام والأضاليل ، وصرعى الموروثات والتقاليد ، ليس فى الدين فحسب ولكن فى العلم ايضا ..

نعم ، فى العلم الذى يفخر اليوم بأنه أطلق العقل من إساره ، وخلصه من أغلاله ، وأرسى المعلومات على أساس الواقع المحسوس العلم صادق فيما يدعى ، القرن السابع عشر فقط على يد العلامة الإنجليزى « باكون » .

أما الإسلام الذى سبق « باكون » بنحو ألف سنة فإنه بمثل هذه الآيات .

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) أى آياته وحكمه . ويمثل هذه الآيات فى النعى على الخياليين والمقلدين : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)

(قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ) (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وبمثل هذه الآيات فى وجوب التثبت والتدقيق : وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ) فوق المرونة وهو فرضه العلم فرضا فقال « طلب العلم فريضة » والدعوة إلى تطلبه ولو من أقصى المعمورة فقال : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

فهل مانقوله هنا غلو قضى علينا به التحمس للدين ، والتذرع لمكافحة المشككين أم هو الواقع المحسوس الذى لاشك فيه مهما حاول ذلك المحاولون ؟

لقد جاء الإسلام إلى العرب فى عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار منذ قرون .. فأهل البداوة منهم كانوا هملا، ومن الفوضى بحيث كانوا يتناحرون وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نيرها تين الدولتين منذ قرون، واستكانوا لهذه العبودية وألفوها ولم يحركوا ساكنا لرفع نيرها عنهم .

زد على هذا أن الامة العربية كانت تكاد تكون وحيدة فى علمها من الناحية الكتابية ، فلم تترك لنا كتابا واحدا حتى ولاما تحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية .

جاء الإسلام إلى هذه الأمة وهى فى هذا الدور من الجاهلية الجهلاء، فصاح بها صيحات تحمل فى تياراتها نفحات من روح الحق . . فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة ، وسارت فى طريق التطور الاجتماعى ، فما مضت عليها مائتا سنة حتى أصبحت صاحبة القيادة العلمية والسياسية فى الأرض، وكانت سببا مباشرا فى حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول ونتائج الفكر .

فهذه الحركة العلمية القوية فيها، ما نشأت إلا بباعث من الإسلام، وما اتجهت وجهتها إلا بإملائه وما توسعت وألمت بجميع فروع المعارف إلا بدافع منه . وقد شهد بذلك جميع مؤرخى العالم قديما وحديثا .

وثمة شواهد تاريخية على أن المسلمين الاولين لم يحرموا على أنفسهم مذهبا من المذاهب ولم يهملوا رأيا من الآراء ، ولم يهجروا أسلوبا من الاساليب بحجة دينية . .

ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحرارا فى عباب العلوم الفلسفات غير مقيدين ولا متأثمين، فبنوا لنا من ثمرات جهودهم صرحا من المجد لا تعفى على آثاره الدهور .

قال العلامة «درابر» المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه «المنازعة بين العلم والدين »

« لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا من الاسلوب الذى توخوه فى بحوثهم : وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان الاوربيين، فإنهم تحققوا أن الاسلوب العقلى لا يؤدى إلى التقدم، وأن الامل فى الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . . ومن هنا كان شعارهم فى بحوثهم، الاسلوب التجريبى والدستور العملى . . إلى أن قال :

« وهذا الاسلوب هو الذى حقق لهم التقدم الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات وهو أيضا الذى مكنهم من وضع قواعد علم الجبر ودعاهم لاستعمال الارقام الهندية الخ

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منظمة وتكوين المكتبات التى تكلمت عنها . . وقد قيل: إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب .

وقد كان أحد شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التى كان فيها من الذخائر الثمينة الاخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية ، فأمر المأمون بترجمته إلى العربية وأسماه المجسطى » .

ثم قال عن همة المسلمين الاولين فى ترجمة الكتب العلمية :

لقد كان فى كل مكتبة كبيرة مكان خاص للنسخ والترجمة ، وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك .

فإن هونيان الطبيب النسطورى كان له مكان من هذا القبيل ببغداد سنة (٨٠٥) م. ترجم فيه كتبا لارسطو ، وأفلاطون ، وأبو قراط ، وجالينوس الخ .

إلى أن قال :

« وكانت قيادة المدارس تسند لذوى المدارك الواسعة ، فكانت إما بيد النسطوريين أو اليهود ، لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنس العالم وديانته ، ما كانوا يزنون قدره إلا بأعماله » .

إلى أن قال :

« وإننا لندهش حينما نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر .

من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس فى مدارسهم ، وقد تعمقوا فى دراسته إلى أبعد مما وصلنا إليه . . وذلك بتطبيقه على المواد المعدنية أيضاً » .

إن من يتأمل فيما ذكرناه ، يرى أن المسلمين الأولين قد ألقوا بأنفسهم فى باحات العلم مطلقين غير مقيدين ، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحاكم العلماء على الفتيل والقطمير وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة فى سبيله .

وأنت ترى أنهم أخذوا عن اليونان فيما أخذوه كل ما أثمرته قرائحهم غير متحرجين من شيء ، وفيما أخذوه أشياء ورد فى ظاهر ألفاظ الكتاب الكريم ما يخالفها ، كمسألة كروية الأرض ، فإن فيه آيات نصت ، على انبساطها .

وجرهم العلم نفسه إلى القول بالنشوء والارتقاء ، وفى الكتاب نصوص صريحة تقول بالخلق المستقل .

فهل كانوا فى هذا مستهينين بالدين ، وفى مقدمتهم الخلفاء ومن دونهم من العلماء ؟

لا . لا . ولكنهم كانوا فى ذلك مسايرين لمبادىء الدين نفسه .

فإن الإسلام ، وقد أطلق العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطانه ، كان يعلم أن المسلمين سيواجهون مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب .

فاحتاط العارفون بأسرار هذا الدين لهذا الأمر ، فوضعوا له قاعدة كلية

فى كتبهم الأصولية وهى : أنه إذا خالف حكم العقل نص الكتاب أو السنة . وجب التعويل على حكم العقل ، وتأويل ظاهر النص .

لذلك لم يصدم الدين بالعلم ، ولا بالمذاهب الفلسفية فى العهد الذهبى للمسلمين . فكان فى هذه القاعدة مخرج للعلماء فى الأخذ بالآراء ، أياً كانت ، وفى التقدم بالعلم والفلسفة إلى أقصى حدودهما غير متحرجين ولا متأثمين . .

هذه القاعدة من أعظم ما أوجده الإسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم ، والموطدة لدول العقل .

وهى فى الوقت نفسه ، أدعى القواعد للإعجاب ، بسمو هذا الدين ، والتعجب من سَبْقِهِ العالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمى من كل وصاية ورقابة .

ومن أعجب العجب أن المفسرين للكتاب جروا على سنة العلم نفسه ، فقرروا كروية الأرض وسواها من المسائل التى تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ، صائرين إلى تأويلها لتوافق مذهب العلم ، مستفيدين من تلك القاعدة العظيمة .

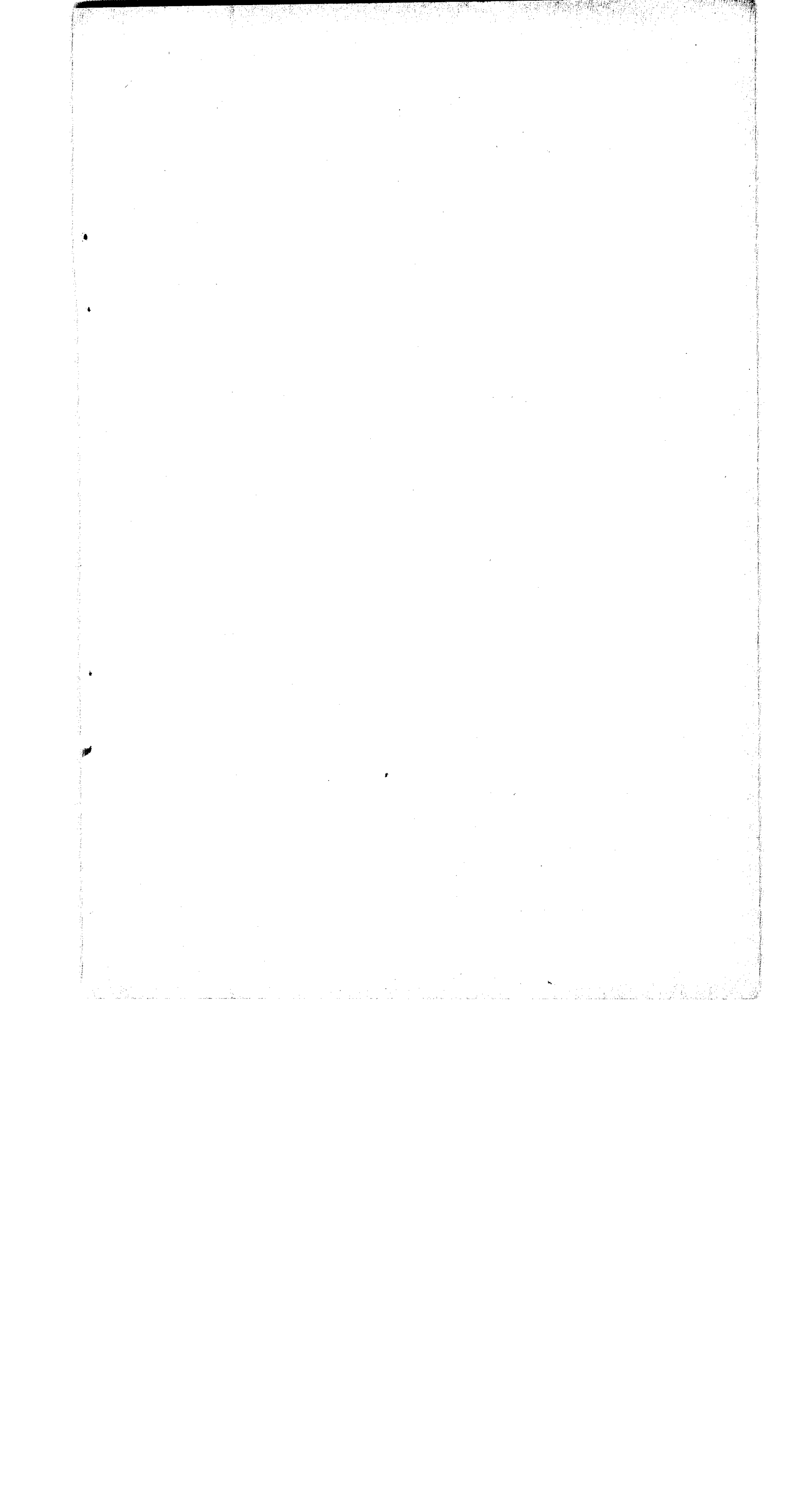
فكانوا بذلك ، ممهدين لأقوم السبل لمن يأتى بعدهم ، عندما يتعمق فى العلم ، ويكشف للناس ما لا يخطر ببال .

فهل فى الأديان المعروفة شيء من هذا النوع ؟ .

ولو شئنا لملأنا مجلدات من أخبار مكافحتها للعلم والعقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منها أكثر من عشرة قرون متوالية ؟

ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد ، وأنه أنزل للناس فى آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأو ، وتمتد الفلسفة إلى أبعد مما يتصوره الخيال البعيد المدى ، وتكثر المسائل التى تخالف ظواهر الألفاظ الواردة فى الكتاب ، لبطل تعجبك وأدركت العاقبة له حتما وإن كره ذلك الكارهون . .

مصداقا لقوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .



أسلوب الإسلام فى بناء الأخلاق

يطلب الأوساط من الدين فيما يطلبون أن يرشدهم إلى طريق الآداب والأخلاق دون أن يحاول تحديدها ، تاركا للعقل حرية التطور فى الشعور بها ، وبلوغ الغاية التى تنتظر منها . .

هـذا نفسه هو أسلوب الإسلام ليس فى الأخلاق فحسب ، ولكن فى كل ماله مساس بالإنسانية .. تفاديا للتحجر الذى يصيب النظم ، فيصبح شأنها شأن التماثيل تضاف إلى أمثالها مما صنع فى أزمان مختلفة ، وتمضى الحياة فى واد وهى فى واد آخر .

لذلك حرص الإسلام على أن لا يعطى ـ على ما يجب أن يتطور بتطور الإنسان من أموره الحيوية ـ إلا أصولا عامة لتبقى هذه الأصول حية خالدة كالنواميس الطبيعية ، يحوم الإنسان حولها مستقسلما لمستلزمات التطور .

وهذا أقصى ما يرجى من فرد أو جماعة ، حيال الأصول الخالدة . وهذا الموقف فى الوقت نفسه يؤثر أعظم تأثير فى أعمال الإنسان ومراميه ، ويطبعها بطابع خاق ، يزداد أثره ظهوراً ، على مر السنين .

كل كائن فى العالم يحمل من الروح العام نفحة ، يقوم بها مبناه ومعناه معا .. والإنسان يحمل أكبر قسط مما تحمله الكائنات من هذا الروح .

وهو الذى يرفعه من حضيض الحيوانيـة ، ولا ينى يدفعـه إلى التطور وإلى الاستقامة .

وهذا القسط الروحانى الأكبر الدافع إلى التطور ، والمؤدى بذويه إلى أرقى مكانة ، هو الذى دعاه الكتاب الكريم بالأمانة .

فقال تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » .

إنه كان ظلوما وجهولا ، لا لقبوله حمل الأمانة ، ولكن لحيده عن الصراط السوى وهو يحمل هذه الأمانة فى سويداء قلبه .

فالكلام دعوة لمراعاة حقوق هذا السر الأقدس فى صورة تبكيت .

وهذا أبلغ ما قرأه الناس فى الحث على مراعاة الكرامة الإنسانية ، وعلى تجلية التبعة الأدبية التى تتحملها البشرية .

والتعبير بالأمانة ، أجمل ماعرفوه من التنويه بالفضيلة ، التى لا يخلو قلب من قبسة إلهية منها .

بعد تقرير هذا المبدأ الأساسى الذى يجعل السعى للكمال فى الأخلاق والصفات والميول ، أمانة فى عنق الإنسان ، وجه الإسلام عنايته لإيقاظ غريزة الرجولة فى النفس إلى أبعد حد ، ورفع رين الكثافات عن قبس الروح المودع فى جبلته .

وقد اختار الإسلام لتجلية هذا المبدأ الأساسى فيه موطنا من أدق مواطن النفس ، حيث تتسلط العاطفة الدينية فتستولى على الشخصية ، وتسوقها وراء صغريات الأمور باسم الورع أو التنزه عن كل ما هو أرضى ، مستوعبة جميع قواها فى سبيلها ، فتجعل الأمة كلها كجماعة من المتنطعة انقطعوا للعبادة الجسدية ، لا يغنون عن أنفسهم ولا وطنهم شيئا ، فقال تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ،وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » .

ومعناها أن العمل الصالح ليس أن تتلفتوا شرقا وغربا تتحرون مكان

القبلة ، ولكن العمل الصالح هو أن تؤمنوا بالله وبالآخرة وبالملائكة وبالكتب الإلهية وبجميع النبيين ، استكمالا لحقوق أرواحكم ، وأن تؤتوا المال ـ على شدة تعلقكم به ـ ذوى قرباكم واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين . وأن تعملوا على فك رقاب الأسرى بأداء دياتهم قياما بحقوق المجتمع ، وتوفية لروح التكافل فيه ، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة تطهيرا لأرواحكم وأموالكم ، وأن توفو بالعهود ، وأن تصبروا فى مواطن الشدة من فقر أو مرض أو حرب .

من يفعل هذا كله فهم الذى صدقوا فى إسلامهم ، وأولئك هم المتقون بحق ، لا الذين قصروا عملهم على تحرى القبلة وبعض الصغريات التى لا تتصل بكبريات الأمور الاجتماعية ، مستعيضين بها عن جميع صفات الروح التى تحفظ وجودكم ، وتصون أوطانكم ، وتمكن لكم فى الأرض . .

فهذه الآية تكشف عن مذهب الإسلام فى الأخلاق ، وتجعل المتأمل فيه يلمس بيده العلل الأولية التى جعلت من المسلمين المتقدمين وحدة مندمجة لم تتجه إلى غاية إلا بلغتها ، ولم ترم إلى غرض إلا أصابته .

ولك ـ بعد هذا ـ أن تتلو الكتاب لترى أن كل ما ورد فيه حثا على محامد الخلال يقصد به إيقاظ غريزة الرجولة ، لا إماتتها كما فعل سواه .

ألا تعجب من دين يسوى فى التبعة بين الظلم والاستكانة للظلم ؟

فمن ترك نفسه يظلم ، فهو كمن ظلم غيره على حد سواء .

ويحضُ على عدم قبول بغى الغير ، فقال فى صفات المؤمنين :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » .

هنا نسرع فننبه أن الإسلام لا يعتبر التجاوز عن الحق ممدوحا ، إن كان عن عجز وقصور ، فإن تعبيره يقتضى القدرة على المجازاة ، إذ لا يعفو إلا القادر .

فلا يقال ضربت الجبان فعفا عنى ، ولكن يقال ضربت الجبان فعجز ، أو فاستخذى ، أو فنكص على عقبيه الخ .

ولم يكتف الإسلام بهذا ، ولكن ذهب إلى عدم قبول الاعتذار بالضعف .

فقال فى قوم هالكين : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

هذا أغرب ما يروى عن دين فى العالم ، لأن المعهود أن الأديان لا تعبأ بالقوة الاجتماعية ، بل تؤدى إلى الضعف فيها وتعترف به .

ولكن الإسلام لا يعتبر الضعف عذرا ، ويوجب على أهله أن يكونوا أقوياء فى مجتمعهم ، وكل هذا متنزل من أصله الأصيل ، فى إيقاظ الرجولة فى النفس البشرية .

ولكن بث هذه الروح فى الأمم ، كثيرا ما أصابها بروح التجبر .

فجاء الإسلام بمعدلاتها من التنويه بفضيلة العفو عند المقدرة ، والصفح إذا كان أبلغ فى المجازاة ، فقال :

« وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

وقال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » .

وقال : « وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » .

وقال : « وَأَنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

وقد جعل الإسلام من معدلات روح الرجولة إقامة مبدئها نفسه ، وتحمل عبء الخلق الممتاز ، حتى فى المواطن التى اعتادت الأمم أن تهدر فيها الدماء غزيرة ، وتعد ذلك قربات عند الله ، وهى مواطن الانتصار للدين حيال من يريدون القضاء عليه وعلى أهله بحمية الجاهلية إعلاء لشأن الوثنية .

فطالب الإسلام أهله بالعدل وعدم الاعتداء حتى فى هذه المواطن ، التى تغلى فيها الرءوس وتطيش الأحلام ، فقال تعالى :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم) أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

وقال : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

وقال : « فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » .

وزاد الإسلام على هذه المعادلات معدلا من روح البطولة والحق العالمى ، لحرم على ذويه فى هذه المواطن الخطيرة الأخذ بالظنون ، وكلفهم بالتبين والتثبت فى هدر الدماء البشرية ، وهو مالم يسمع بمثله فى تاريخ أمة من الأمم وبخاصة فى الحروب الدينية التى يقتل فيها الرجل أباه ، أو أخاه ولا يبالى .

فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا (حتى لا تهدروا دماء خطأ) ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا »

هذا مع أنه ثبت لهم أن الكافرين ، كثيرا ما كانوا يستفيدون من هذه السماحة فيظهرون الاستسلام والسيف يهوى إلى أعناقهم ، ومتى زال عنهم الخطر عادوا إلى خصومتهم .

وقد حدث أن أحدا الصحابة لم يبال بخصم له نطق بالشهادتين والسيف يهوى إلى عنقه .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، غضب منه غضبا شديداً ، وتبرأ إلى الله من عمله .

فقال له الصحابي : يا رسول الله هذه خديعة منه . .

فقال : ولو كانت،فإننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فهذه الدرجة فوق الرجولة : فهى بطولة صحيحة ، وخلق سام ، ليس وراء مذهب ولقد تنمو هذه الغريزه وتشتد حتى تستحيل إلى وحشية ، كما استحالت إليها لدى أمم كثيرة ، فاحتاط الإسلام لذلك من كل ناحية ، ونجح فى ذلك فاشتهر أهله بحسن الجوار فى كل تاريخهم الحافل بعظائم الأمور .

ومن معدلات هذا الخلق روح التضامن الذى بثه الإسلام فى أهله بقوة لم تعهد فى دين من الأديان .

فقرر ، أولا ، أن الدين النصيحة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » فقالوا : لمن يارسول الله ؟ قال « لله ورسوله وعامة المسلمين وخاصتهم » .

ثم جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حقا من حقوق كل فرد فى المجتمع ، وواجبا عليه يسأل عنه . فقال تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وقال فى قوم من الهالكين : « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران » .

فلكل مسلم بحكم هذه الآيات الحق فى إبداء النصيحة للمجموع ، وهو حق دستورى لم يقدر إلا فى آخر القرن الثامن عشر ، فكان من ضمن حقوق الإنسان التى أعلنتها الثورة الفرنسية .

ولما تم للاسلام إحياء غريزة الرجولة فى نفوس أهله ، ارتفع بهم إلى درجة البطولة وطالب أهله بمقتضياتها وهى :

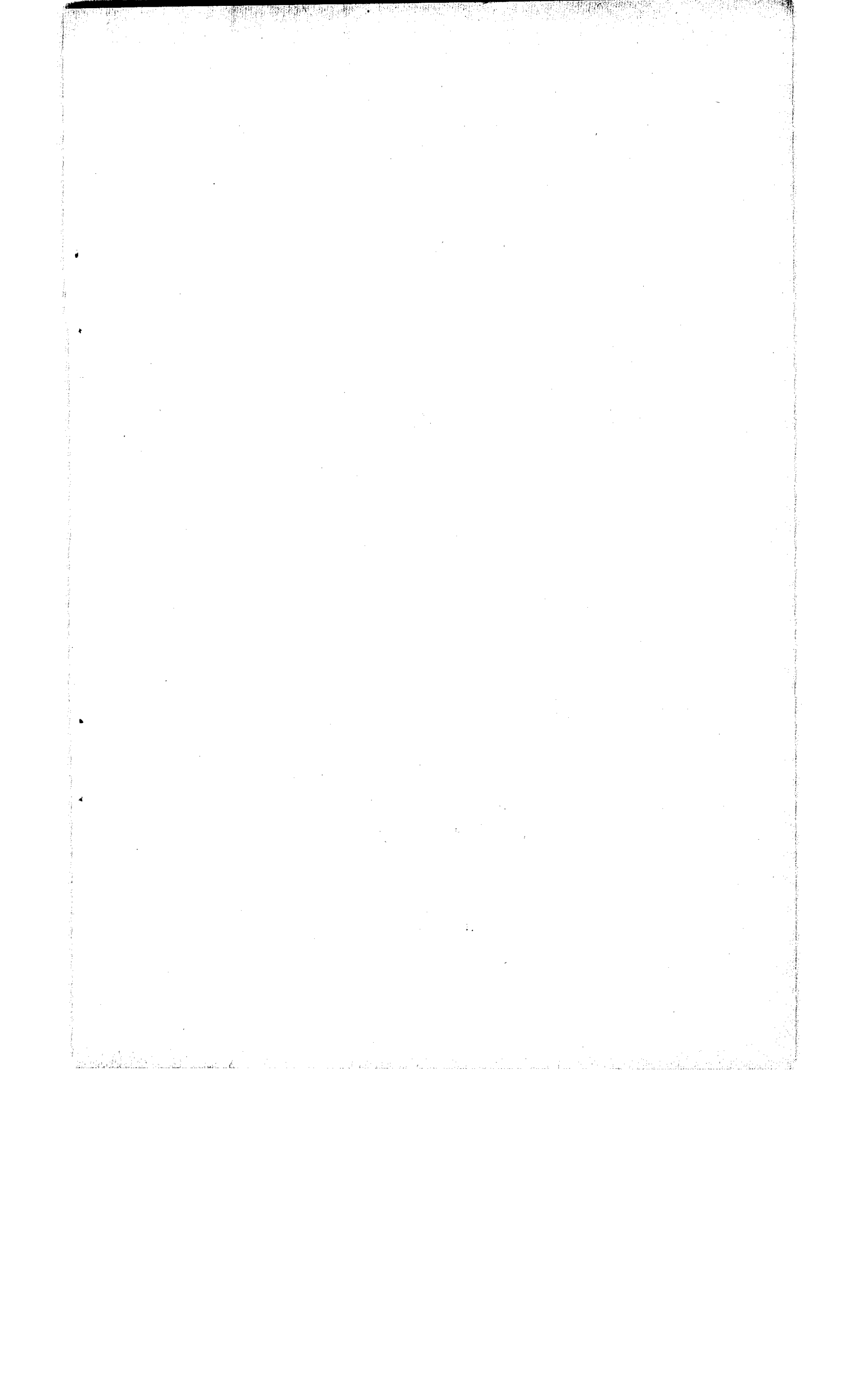
أولا — قول الحق ، ولو على النفس والأقربين ، فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » .

ثانيا — الترفع عن تطلب الثناء على الإحسان فى كل عمل فقال تعالى :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً » .

ثالثا — إيثار المحتاج على النفس فقال تعالى : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » .

ثم ماذا أقول ، والقرآن بحر زاخر من الأخلاق النبيلة ، والشمائل الجليلة . وبحسبى أن أكون قد وفقت للإلمام بأصولها التى تقوم عليها .



الفصل الثالث

شريعة الإسلام

* شريعة الإسلام هى القرآن
* نظرة على أصول الشريعة الإسلامية
* الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن
* حكم الآيات المتشابهة فى القرآن
* حظ العامة من الإسلام

شريعة الإسلام هى القرآن

يرجو الأوساط من الدين أن لايكون إلا أصولا أولية ، تكون دستوراً للشرعين ، لا أن تكون شريعة تفصيلية إن انطبقت على الحوادث فى عهد ، شذت عنها فى عهد آخر .

ونحن نقول : إن الشريعة الإسلامية تفى بهذا المطلب على أكمل الوجوه .

فهى محصورة فى القرآن الكريم ، وهو مجمل فى مواطن كثيرة منه .

لذلك اضطر الخلفاء الاولون أن يستأنسوا بما قضى به النبى صلى الله عليه وسلم

فكانوا إذا لم يجدوا ضالتهم من السنة ، عملوا بآرائهم ، مستنيرين بالعرف والحقوق الطبيعية ، والأصول التشريعية المقررة فى القرآن . .

فلما امتد الملك الإسلامى ، ونبغ العلماء الكبار فى عواصم الإسلام ، عالجوا الأمور التشريعية ، مقررين أن للشريعة الإسلامية أربعة أركان ، الكتاب ، والسنة ، والقياس ، وإجماع المسلمين ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالاستفتاء العام .

ولابد لنا قبل الكلام على الشريعة الإسلامية ، أن نلفت القارىء إلى أمور هامة ، وكلها من أكبر وأجل ما يؤثر فى تاريخ شريعة .

— وقد أصبحت — بما فتح على الناس من أسرار التشريع — من المعجزات الخالدة لهذا الدين ؛ والسيرة النبيلة لرجاله الأولين .

أولا : أن التشريع فى الإسلام لم يسند إلى طائفة خاصة ، ولا حصر فى طبقة معينة ، ولا جعل من حظ العرب وحدهم . . ولكنه جعل حقاً شائعاً للكافة ، يتناوله من شاء من المسلمين ، حتى المماليك الأجانب ، وأبناؤهم ممن كان يطلق عليهم العرب كلمة الموالى . ثم ترك للرأى العام الحكم فى الأخذ بما يقال أو إهماله.

لذلك اتفق أن كان جمهرة أئمة الأقاليم وزعماؤها فى الدين ، من هؤلاء الذين كانوا أرقاء أجانب ، أو ولدوا من آباء كانوا أرقاء أجانب .

قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ، قال للزهرى إمام الحديث . « من يسود أهل مكة ؟

قال الزهرى عطاء . قال هشام : بم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية

قال هشام : نعم ، من كان ذا ديانة ، حقت الرياسة له .

ثم سأل الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاووس .

وكذلك سأل عن مصر ، والجزيرة ، وخراسان ، والكوفة « ولايات الدولة الإسلامية » .

فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا ، كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال : إنه عربى .

فقال هشام : الآن فرحت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ، ويخطب لهم على المنابر .

ثانياً : إنه لم يوضع للتشريع أسلوب مقرر لايجوز تعديه ، فترك لكل مشرع الخيار فى انتخاب أسلوبه . . لذلك تخالفت أساليبهم إلى حد بعيد .

وأشد ما تكون عليه اختلافا بين أصحاب الرأى والقياس ، وبين أصحاب الحديث

فالاولون — وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان (توفى سنة ١٥٠ ﻫ) كانوا يرون أن الرأى والقياس الصحيح ، أولى بالاتباع من الأحاديث التى رواتها آحاد . .

ولم يصح عندهم من الأحاديث التى رواتها جماعة ، أى (المتواترة) التى لا عذر لأحد فى الشك فيها ، إلا بضعة عشر حديثاً .

والآخرون أخذوا بأحاديث الآحاد إن قوى إسنادها ، وثبتت بغلبة الظن صحتها .

ثالثاً : لم يخص التشريع بزمان دون زمان ، فقد كان للقرن الأول أئمة ، وللثانى أئمة يقلدهم الناس ، يبلغ عددهم السبعين أو يزيدون .

فإذا لم يبق لهم أتباع إلى اليوم فلأن المسلمين وجدوا فى مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، غنى عن بقية المذاهب ، فاتبعوها وأهملوا ماعداها .

ولكن سلسلة الإمامة فى الدين لم تنقطع ، لنص العلماء على رجال من أهل القرن الرابع والخامس وما بعده ، بأنهم وصلوا إلى درجة الاجتهاد ، ولايزال الباب مفتوحا إلى يومنا هذا ، ولن يزال مفتوحا على مصراعيه حتى تقوم الساعة .

رابعاً : أن أحداً لم يحجر على أحد حريته فى اتباع أى المذاهب الفقهية شاء ، بل ولم تحجر على أحد حريته فى اتباع مذاهب المعتزلة والخوارج والفرق التى اعتبرت مبتدعة ، فقد كان لهم ممثلون فى جميع عواصم الإسلام .

وكان الكافة يجتمعون فى المساجد فيتناظرون ، ثم يرجع كل منهم إلى داره آمنا ، لا يزعج طمأنينته أحد .

خامساً : إجماع المسلمين على أن الاجتهاد فى كشف أسرار الشريعة ، واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب .

وهم — فى ذلك — كانوا يصدرون عن طريقة النبى صلى الله عليه وسلم نفسه فقد قال : للمجتهد أجران ، إن أصاب ، وأجر إن أخطأ .

سادساً كان المسلمون لايروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم .

وكانوا يكبرونها إلى حد أن جعلوها علما خاصا سموه « علم الخلاف » .

فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان فى سرائر المسائل المعقدة .

وسرى الترحيب بهذا الخلاف إلى العامة فقالوا : اختلافهم رحمة .

هذه الأمور الستة التى ذكرناها هنا ، ونحن بسبيل الكلام عن الشرع الإسلامى ، لايصح أن ندعها من غير تعليق عليها . فإنها أعجب ما يروى عن شريعة دينية ، وتبين عن أغراض سامية ، ومرام بعيدة ، تضع هذا الدين فى مستوى بعيد عن العوامل التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالتجمد والتحجر ، وتوجد

له من المناعة وقوة الحياة ما يتقى بهما كل ما يخطر بالبال من دواعي الانحلال ، فيضمن لنفسه الخلود والتفوق فى وسط كل تطور من تطورات العقل والعلم معاً .

لقد قصد الإسلام — بعدم حصره حق التشريع فى طائفة خاصة أو جنس معين ، وبفتحه بابه فى وجوه الكافة حتى الأرقاء ومن فى حكمهم — أن يجعله عالمياً عاماً ، لا طائفياً خاصاً ، ولا قومياً محدوداً ..

وغرضه من ذلك أن يتابع التشريع حياة الأمم ، ويكابد معها كل التطورات التى تدخل فيها ، حماية له من الوقوف عند حد محدود ، ومن القصور عن الإلمام بحاجات البشر كافة . باعتبار أنه دين عام خالد .

وكل ما هو عالمى، يعيش بحياة العالم ، ويتبادل وإياه التعاون على قطع مفاوز الحياة ، ويدخل معه فى جميع التطورات ، ويخرج منها أقوى مما كان وجوداً ، وأرسخ أصولا ، وأشمل لحاجات الآخذين به والمعولين عليه .

ولكنه لو أسند إلى طائفة خاصة أو طبقة معينة ، أو جنس دون جنس ، لاصطبغ بصبغة قومية ، فينطبق على قوم دون آخرين ، ويخرج مع الزمن ، عن أن يكون شرعاً عالمياً ، فيقف عند حد . . ويزداد التباين بينه وبين الأمم ، فلا تجد فيه حاجاتها ولا ثقافتها ولا روحها ، فتدعه وشأنه ، متلمسة من الشرائع، ما يكون أولى بها منه .

وقد ترك الإسلام لشعوبه كل شيء من أول تعيين خليفة له ، إلى تحديد شكل الحكومة ، إلى ترتيب السلطات العامة إلخ ، ليكون كل ذلك للشعوب الآخذة به . . وما كانت هذه صفته ، عاش ما عاشت الشعوب ، وتطور معها ما تطورت ، وليس بعد هذا ضمان لحياة شريعة عالمية فى الأرض .

وهدف الإسلام من عدم تحديد أسلوب مقرر للناظرين فى شريعته ، عدم حصر دائرة البحث فى أمر ، كلما تعددت أمامه وجهات النظر، فيكون ذلك أدعى للإصابة ، وأرجى لبلوغ الغاية .

وهذا ـ فى الوقت نفسه ـ أجدر بدين يعترف بسلطان العقل، ويشيد بدولة العلم، ويحترم لكل مفكر وجهة نظره ، فى الحدود التى قررها أولو البصر ، ويقررونها على مر الأجيال والعصور .

والمتأمل فى مدى الخلاف بين أهل الرأى والقياس ، وبين أهل الحديث ، يرى البون شاسعاً . . ومع هذا فقد رضى المسلمون هذا الخلاف الجوهرى بين الفريقين ، وخصوا صاحب المذهب الأول ـ وهو فارسى الجنس ، وقليل الحظ من العربية[1] ، بلقب « الإمام الأعظم » واتبعه أكثر المسلمين .

والمحير للعقل أن المسلمين أساغوا مذهب أبى حنيفة هذا فى القرن الثانى للهجرة ، ودعى هذا الإمام ليتولى رئاسة القضـــاء فى الدولة فأبى . . فتولاها صاحبه أبو يوسف ، والمملكة الإسلامية فى أوج عظمتها .

فلما نبغ أهل الحديث فى القرن الثالث بظهور مالك ، والشافعى ، وابن حنبل ، احترموا رأى أبى حنيفة ، ولم يرموه بما يرمى به المخالفون خصومهم . . بل كان بعضهم يصلى خلف بعض ، ومن غير اعتداد باختلافهم فى وجهات النظر إلى هذا الحد البعيد .

وهذا الأدب حصلوه من الإسلام نفسه ، فإنه خول للعقل كامل سلطانه ،

---

(١) قوله (وقليل الحظ فى العربية) كلام غير صحيح ، فإن من أقرت له الأئمة بالإمامة ، عربهم وعجمهم ، لا يكون قليل الحظ فى العربية ، واستنباطاته الأحكام من معانى الحروف المفردة أشهر من أن يعرف بها ، خذ مثلا إيجابه المهر فى النكاح أخذاً من معنى الباء فى قوله تعالى(أن تبتغوا بأموالكم) لأن معنى الباء الحقيقى لها الإلصاق ، إذاً فلا ينفك النكاح عن المـــال ، وكذا إيجابه مسح ربع الرأس فى الوضوء أخذاً من معنى الباء أيضاً التى هى للإلصاق وتفرقته بين دخول الباء على آلة المسح وبين دخولها على المسح ، ففى الحالة الثانية ، يقتضى استيعاب آلة المسح الذى هو الكف من اليد البالغ ربع الرأس ، بخلاف الحالة الاولى فإنها لا تقتضى استيعاب الآلة . وهذا كله اعتماداً على اللغة العربية وطرق استعمالها . أفيكون من هذا حاله ، فى قوة المدرك ودقة الاستنباط ، قليل الحظ فى اللغة العربية ، سبحانك هذا خطأ فاحش واتهام فاضح بتجهيل إمام عظيم باللغة العربية التى هى لغة الشريعة ، مع أنه الامام الأعظم فى الشريعة وفقهها الأوحد فيها ، ولولا خوف الملل لأطلنا الكلام وبسطنا القول فى التدليل على قوة الإمام الأعظم فى اللغة العربية والتعمق فى فهم معانى مفرداتها وتنوع معانيها فى تراكيب الكلام وأساليب الاستعمال . « محمد زهرى النجار »

ولم يشترط للنظر وجهة معينة ، ولم يضع له حداً مقرراً . . بل ترك العقول حرة في توثباتها لبلوغ الحقيقة المجردة .

وهذا الأدب إن شوهد بين أهل الفلسفة والعلم ـ وكان من مقوماتها وهو الذى ضمن لها الاحترام العام ، والحظوة بالخلود ودوام الارتقاء ـ فإنه لم يشاهد قط بين أهل الأديان .

فقد حصروا النظر فى أمور الدين فى طائفة خاصة ، ووضعوا له تقاليد لا يمكن تجاوزها بوجه من الوجوه ..

لذلك انفصلوا عن جثمان الأمة ، فخيل إليهم أن هذا الانفصال تميز ، ففرحوا به وغفلوا عن أن هذا التميز يضيع الدين ويضيعهم معه .

وأراد الإسلام من عدم اختصاص التشريع بزمان دون زمان ، أن يستفيد من الرقى الذى تحققه العقول ، فيكون حظه منه أوفر حظ ، ويندمج فى روح الأمم فتتوحد ميولها الدينية وميولها العلمية ، فلا يكون بينهما تناقض من أى نوع كان .

وتدوم الصلة بين الناس وشريعتهم ، فتدخل معهم فى جميع التطورات المقدرة لهم ، وتتلاءم وأحوالهم الاجتماعية التى يدخلون فيها تحت ضغط الحوادث وآثار الانقلابات .

وقد عاش المسلمون قروناً على هذا النحو حتى إنهم اضطروا إلى تأويل كل نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم ، فقالوا بكروية الارض وبكل ما وصل إليه علم الفلك وغيره (١)

---

(١) قوله (حتى إنهم اضطروا إلخ) ويفهم من كلامه أن علماء المسلمين قالوا بكروية الأرض تحت ضغط تقدم العلوم الأوروبية مع أن علماء المسلمين توصلوا إلى العلم بكروية الأرض من قرون متطاولة ، بينما كانت أوربا غارقة فى بحار ظلمات الجهل ، فالرازى ، والقرطبى ذكرا فى تفسيريهما أن الأرض كروية ، والقزوينى كذلك فى كتابه « عجائب المخلوقات » وابن القيم فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ذكر أن الأرض كروية نقلا عمن تقدمه من =

العلماء ؛ وهاك نص كلامه فى تفسير (والشمس وضحاها) قال : (فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفاً لهذا العالم ، والطحو ، هو : مد الأرض وبسطها وتوسيعها ، ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها وهو مما حير عقول الطبائعيين ، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء ، فبروز جانب منها على خلاف مقتضى الطبيعة ، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب فى الشكل الكرى ، يقتضى تخصيصاً ، فلم يجدوا بداً من أن يقول : (عناية الصانع اقتضت ذلك إلخ) انظر قوله (فى الشكل الكرى) ويشير أيضاً إلى كروية الأرض قوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) إذ التكوير لا يكون إلا على شيء كروى ، ومعلوم أن الليل والنهار إنما يكوران على الأرض ، فيفهم من ذلك ضرورة كرويتها كما يفهم كروية رأس الإنسان حينما تسمع قائلا يقول : فلان مشغول بتكوير عمامته ، هذا ما فهمه علماء المسلمين — حسبما بلغ اطلاعى — من القرن الخامس الهجرى ، وربما كان قبل ذلك ، ولكن المؤلف وأضرابه فتنوا بالعلوم الأوربية ، فأفرطوا فى التهجم على النصوص وراموا إرغامها على موافقة تلك العلوم القابلة للتغير وكم وكم من النظريات كانت مقدسة فأصبحت فيما بعد خرافة كمذهب داروين الذى يقول إن أصل الإنسان قرد ، فأصبح الآن أضحوكة وخرافة ، فالواجب علينا أن لا نتهجم على نصوص ديننا بالتأويل مجاراة للعلوم الأوربية ، فالمؤلف ومن قبله الشيخ محمد عبده ، رفضوا قبول حديث الذباب القائل (إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الأخرى دواء وإنه ليتقى بجناحه الذى فيه الداء ويرفع الجناح الذى فيه الدواء) قال الشيخ محمد عبده ومن لف لفه هذا حديث باطل ، ولكن العلم أثبت فيما بعد صدق الحديث ، بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، فما كان من بعض أشياعه الذين أدركوا تأييد الطب الحديث للحديث النبوى . إلا أن رفعوا عقائرهم قائلين (هذا من معجزات الإسلام) مع أنهم بالأمس كانوا يقولون : الذباب يلوث الطعام والشراب ومحال أن ينطق الرسول بهذا الحديث مع أن الحديث ورد فى البخارى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، وقد أحسن وأفاد وأجاد الإمام ابن تيمية حينما ألف كتابه (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) فليرجع إليه من أراد الاستزادة والاستفادة ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

مع أن فى الكتاب آيات يدل ظاهرها على نقيض ما قالوه ، فأولوه جرياً على الأصل الإسلامى نفسه .

وألهم المسلمون عدم الحجر على حرية أحد فى اتباع أى المذاهب شاء ، لقيام دينهم على حرية البحث ، وتحريم التقليد وإلقائه تبعة كل إنسان على عاتقه ، وتقريره أن نفساً لا تغنى عن نفس شيئاً ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام لابنته: « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » ..

فكل مسلم مسئول عن عقائده ومعاملاته ، ومطالب بالبرهان عليها باعتبار أنه كائن رشيد منح كل الصفات التى تجعله رشيداً ، وقد أوتى عقلا يميز به الحق والباطل .

وقد رحب المسلمون بتعدد المذاهب وشجعوا عليه ، لثقتهم بأن ما أبهم على واحد فى أمر من الأمور قد ينكشف لآخر ، وما استعصى على مفكر من المفكرين قد ينقاد لغيره ، فلا يحرمون من مزايا العقول فى تصيد الحقائق ، وهى من السعة بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين فى ذلك ..

بل إن الإسلام فى تقريره عدم قبول إيمان المقلد ، يشجع الكافة على الحصول على هذه الدرجة ، ولا يسد على أحد مجال الاجتهاد فى هذه الناحية .

ولهذا السبب عينه ، لم يخص الإسلام الاجتهاد بجنس واحد ، ولكن فتح مجاله حتى أمام الأرقاء ومن فى حكمهم ، وهذا ما لم يسجله دين لأهله من سعة الصدر إلى اليوم .

ومما يجب أن يسجل لهذا الدين من المفاخر الخالدة فى هذا الباب ، تقريره أن المجتهد يؤجر وإن أخطأ ..

فهذا الأصل الإسلامى يعتبر من أقوى الحوافز لأعمال العقول والأذهان .

ويدل على أن مقصد هذا الدين الوصول إلى الحقائق السامية ، لا الانحصار فى دوائر ضيقة والجمود فيها ، فيجىء ناموس الترقى فيدفعهم للخروج منها فيستقر فى نفوسهم أنهم خرجوا على الدين ، ويكون التنازع فى صدورهم مثاراً لشبهات وشكوك لا تقف بهم عند حد ، ثم يؤول أمرهم إلى نبذ الدين ظهرياً .

نظرة على أصول الشريعة الإسلامية

لم تظهر شريعة أرسخ قواعد فى العدل ، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ، وأشمـــل لعناصر التطورات الإنسانية ، من الشريعة الإسلامية .

ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت فى وضعها ، لا مصلحة المجتمع الإسلامى وحده ، ولـكن مصلحة المجتمع البشرى كله . بل والمجموع العالمى عامة .

ولاحظت فى بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائماً على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولـكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى .

لقد أدرك الإنسان فى العصور الحديثة أن هناك عدلا مطلقاً ، وحقوقا طبيعية لـكل فرد وكل جماعة .

فقصارى الشرائع التى تعتبر اليوم عادلة أن تقرب بالإنسان إلى هذا العدل وهذه الحقوق ، لا أن تهيئها له كاملة .

وفى اليوم الذى تستطيع أن تبلغ به إلى هذه الدرجة من الـكمال تـكون قد وصلت إلى المثل الأعلى الذى كانت تتطلبه ولا تبلغه .

ولـكن الإسلام انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق ، والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معاً .

نعم لقد أقر الإسلام الاسترقاق والحرب والفتوحات وفرض الجِزَى (جمع جزية) على المقهورين ، وكل عالم بالاجتماع يرى له فى ذلك واسع العذر ، فإن كل هذه الأمور كانت من عوامل الحياة الاجتماعية ، ومن آثار التطورات الإنسانية . . فـكيف كان يتسنى لدين يريد أن يكون عملياً لا خيالياً أن يبطل الاسترقاق ، ولم يحن وقت إبطاله إلا فى القرن التاسع عشر؟!! .

أو يمنع الحرب ولا تزال الحرب إلى اليوم الوسيلة الوحيدة لإثبات الحقوق؟

وكيف يحرم متبعيه من أقوى بواعث العمران ، بل مما به وجودهم أحياء بين الجماعات ؟

ألا يرون أن الأديان التي جاءت بالسلام والاستسلام ، قد اضطر أتباعها لمخالفتها ، وأصبحوا أكثر الأمم اشتغالا بالحرب والفتح والاستعمار ؟ .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الإسلام أحاط كل هذه الأمور بما يخفف من ويلاتها ، ويؤدى إلى إبطالها متى اقتضت التطورات البشرية إبطالها .

وللقارىء أن يراجع ما كتبناه فى فصل الاسترقاق والحرب والاستعمار لدى المسلمين فى قسم الرد على الشبهات .

ونكرر هنا قولنا : إن الإسلام أمر فى الحرب بعدم الإسراف فى إراقة الدماء ، وبعدم الإجهاز على جريح ، وبعدم مطاردة المهزوم ، وبقبول أوهى المحاولات وأكذبها للخلاص من القتل ، كمن يلقى السلام ، والسيف يهوى إلى عنقه .

وراعى الإسلام فى ضرب الجزية مصلحة المقهورين ، حتى إن أمما دخلت تحت حماية المسلمين طواعية هربا من الضرائب الفادحة التى كانت تفرضها عليهم حكوماتهم والتمتع بنعمة العدالة الإسلامية . وهذا أغرب ما سمع عن الفاتحين القدماء والمحدثين[١] .

أما فيما عدا هذه الأمور التى قضى بها الوجود الاجتماعى العام ، فإن الإسلام قرر لشريعته العدل المطلق والمساواة التى ليس وراءها مذهب ، بصرف النظر عن الألوان والأجناس والأديان والمراتب الاجتماعية ، فانه لم يعتد ، فى سبيل ذلك ، لا بطبقات ولا بطوائف ، ولا بأى امتياز متنزل من أى اعتبار كان .

شريعة الإسلام فى القرآن ، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما . . وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق وتحديد التبعات ، وتقرير العقوبات ، إلا فى مواطن معدودة سنأتى عليها .

وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم فى حوادث قضاء حفظته السنة الصحيحة .

وجاء الأئمة بعده ، فقضوا بأمور أخرى لم تكن قد وقعت على عهده

(١) راجع كتاب «المنازعة بين العلم والدين» للعلامة «درابر» المدرس بجامعة نيويورك.

صلى الله عليه وسلم ، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به ، العدل المطلق ، والمساواة الكاملة . . فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر إلى اليوم .

وقد أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر فى أمثال هذه الأمور لدى الأمم كافة ، كالأرقاء ومن فى حكمهم .

فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشئون ، واعتبر كلامه إما اجتهاداً مطلقا منه ، أو اجتهاداً فى مذهب من المذاهب المقررة .

حتى لاتستطيع أن تأتى بقول حديث من أقوال المشرعين المعاصرين لنا لايكون قد سبقهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين .

فاذا أريد أن يشرع من هذه الأقوال قانون عام ، أمكن تشريعه على حال أكمل من حال كل قانون فى الأرض ، ويكون قابلا للتطور إلى مالا حد له ، لأن الإسلام لم يضع للاجتهاد حداً ، ولم يعين له أهلا ، ولم يحدد له زمنا . . ولكنه ترك بابه مفتوحا ليتسع لجميع التطورات العقلية التى تمر بها العقول فى كل زمان ومكان ، وحتى لايكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الأخرى .

هذا من ناحية الاصول الأولية ، التى أقيم عليها صرح الشريعة الإسلامية .
فهل راعى المشرعون الإسلاميون هذه الأصول ، وهل أساغها الناس فى تلك العصور ، ونفذوها على أكمل الوجوه ؟

نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة لأن مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة ، لم تنفذ إلى اليوم فى أرقى أمم الأرض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين .

فهل تنفذها أمة فى أول عهدها بالاجتماع ، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها — نحن — لها اليوم ؟ . .

نعم نفذتها الأمة الإسلامية ، وقامت بحقها طوال عهد قوتها وإليك طرفا من سيرتها فى ذلك :

شكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر فى خلافته — وأنت تعرف من هو

على — فلما مثلا بين يدى أمير المؤمنين ، نظر إلى على وقال له : اجلس يا أبا الحسن ، فظهرت آثار من الغضب على أسارير وجه على .

فقال له عمر : « أكرهت ياعلى أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل وإياه أمام القضاء ؟ » .

فقال على : « لا ، ولكنى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه بأن كنيتنى فقلت: يا أبا الحسن والتكنية تعظيم ! » .

انظر إلى مبلغ فهم المسلمين الاولين لمعنى العدل ، حتى عد على بن أبى طالب تكنيته رفعا له على خصمه ، وهذا فى نظره ضد المساواة التى أمر بها الإسلام .

وانظر فوق هذا إلى أنه غضب ، لأن غيره عدا على العدل ولو فى تمييزه هو نفسه عن غيره .

وهذا غاية ما يعرف فى تضامن أمة للوصول إلى المثل الاعلى فى كل شأن .

وحدث أن ولدا لعمرو بن العاص القائد المشهور فاتح مصر وواليها ، على عهد عمر بن الخطاب ، ضرب رجلا ظلما . . فأقسم المجنى عليه ليشكونه لأمير المؤمنين .

فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى المسجد فى موسم الحج ، إذا بهذا الرجل يقوم فيقول : « يا أمير المؤمنين ، إن هذا — وأشار إلى ابن عمرو — ضربنى وقال : اذهب فأنا ابن الأكرمين .

فنظر عمر إلى عمرو وقال له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

ثم التفت إلى الشاكى وناوله درته وقال له : « اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك » ففعل . .

تأمل فى هذا العدل الذى يضمن حق رجل من السوقة ، ضد أمير من أمراء العرب وابن فاتح أعظم بلاد العالم غنى ، وأبعدها فى الممالك شهرة . .

وتطاول أبو ذر الغفارى على عبد زنجى فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له: « يا ابن السوداء » فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

« طف الصاع طف الصاع (مرتين تهويلا للأمر) ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .

فوضع عند ذلك أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : « قم فطأ على خدى » (تكفيراً عن ذنبه) .

هذا فى حين أن بعض الشعوب الراقية ماتزال تعتبر السود إلى اليوم فى مستوى القردة ، وأشد ما يكونون عليه هوانا فى بعض البلاد المتمدنة .

وعلى ذكر العبيد أقول : أتعلم أن فى الأرض أمة تقتل الحر بالعبد ؟ .

لا . . ولا فى هذا القرن حيث بلغ الشعور بالمساواة حداً بعيداً .

ولكن الإسلام قرر فى شريعته أن يقتل الحر بالعبد إذا قتله عمداً .

فأنا إذا حشدت للقارىء كل آيات البيان لاستنزال إعجابه بهذا السمو ، فقد أرانى مقصراً حيال هذا الأمر الخطير .

ثم هل تعلم أن أهل دين يقتلون أخا مؤمنا منهم بكافر ؟

لا والله ، إلا فى شريعة الإسلام . .

إن أصدق ما يظهر به الإنسان من مبلغ احترامه للعدل والمساواة ، وقت احتدام غضبه ، وإرخاص دمه ، دفاعا عن حياته وذودا عن كرامته ، وأصدق ما تظهر به الأمة من ذلك ، وقت الحرب والدفاع عن الحوذة ، وبخاصة ضد خصوم من أهل الجاهلية الجهلاء ، لايعرفون للرحمة معنى ، ولا يقيمون للإنسانية وزنا . . فتأمل شريعة الإسلام .

تأمل إلى أى حد تأمر أهلها باتباع سنة العدل حتى فى هذه المواطن التى تغلى فيها الدماء بالسخائم ، وتطيش فيها الأحلام وسط صليل الصوارم .

فقال تعالى : « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا يحملنكم عدوانكم لهم) أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا » .

وقال : « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا ، إعْدِلُوا ، هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وقال : « وَقَاتِلُوا الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

وفى الكتاب الكريم من أمثال هذه الآيات ، العدد الوفير .

وقد سبق أن ذكرنا أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجلا فى الحرب ألقى إليه السلام ، فلما بلغه ذلك غضب غضبا شديداً ، وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل فلان » .

فقال له صاحبه : إن هذه منه خدعة يا رسول الله .

فقال : « ولو كانت كذلك ، فإنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر » .

فالأخذ بالظاهر هذا مبدأ ، أول ما جعله أصلا من أصول الشريعة وأساسا من أسس المعاملات ، هو الإسلام .

ولقد ساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ من المنافقين التحفوا الإسلام واستبطنوا الكفر ، فكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وينقلون إلى الكافرين أخبارهم وحركات جنودهم ، ويخرجون معهم للقتال فينهزمون ليجروهم معهم ، فيتعقبهم العدو ويفتك بهم .

فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر إيمانهم ، وصبر هو وأصحابه على أذاهم ، وهم قادرون على إبادتهم .

وهذا مالم يظهر أثره فى التشريع الدستورى ، إلا فى القرن التاسع عشر ، حيث استقرت الدساتير ، واحترمت المذاهب السياسية المختلفة ، وتركت الحرية لكل قبيل يعمل فى دائرة القانون العام ، ومنع التحرى عن سرائر الناس للايقاع بهم .

إننا نكتب هذا ، ونحن نتفزز طربا من هذه الآيات الباهرة ، ونتساءل : هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى تعتبر المثل الأعلى للعدل من طريق غير الوحى ؟

وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب ، حيث بيئة الفخر بالآباء ،

واحتقار الضعفاء ، والعدوان على الحقوق ، وعبادة القوة والأقوياء ، أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا ؟

وإذا كان أفلاطون وأرسطو ، أميرا الفلسفة، قررا ، وقرر من جاء بعدهما ، حرمان أهل الحرف والصنائع وأصحاب المهن والأرقاء ، من الحقوق المدنية كافة. أفلا يعتبر الاعتداد بهم إلى هذا الحد ، سموا ليس وراءه مذهب ؟

يقول قائل : إنك تقول . إن شريعة الإسلام أصول عامة تصلح لكل زمان ومكان ، ولكنا نرى القرآن قد نص على عقوبات مختلفة بالنسبة لجرائم معينة كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف ، والفساد فى الأرض .

فكيف توفقون بين قولكم وهذه النصوص ؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن

قلنا : إن فى الكتاب الكريم جرائم معينة حددت لها عقوبات مقررة ، كالزنا والقذف والسكر والسرقة ، والفساد فى الأرض .

فالكتاب والسنة الصحيحة يقرران على مرتكب الجريمة الأولى ، إن كان محصنا ، عقوبة الرجم .

وعلى مقترف الثانية مائة جلدة ، وعلى مقترف الثالثة ثمانين جلدة . وعلى جانى الرابعة قطع اليد . وعلى فاعل الخامسة أن تقطع يده ورجله من خلاف ، أو ينفى من الأرض .

فهذه العقوبات تصادف اليوم إعتراضات من جانب المشرعين، وقد أباحوا هم الزنا والسكر ، وقرروا على القذف والسرقة والفساد فى الأرض ، عقوبات تناسب خطرها .

ويفوت هؤلاء النقاد ، أمر خطير ، وهو أن الإسلام دين إصلاح اجتماعى، وله برنامج معين فيه . . وهو يرمى إلى تأليف مجتمع خال من الشرور ما أمكن، ويسود فيه التكافل فى الحياة ، والترافد حيال صعوباتها ، إلى أقصى حد تطيقه الفطرة البشرية .

وفى الأرض مذاهب إصلاحية تكاد لا تحصى . فما الأديان الموجودة .

وما جمهورية أفلاطون ، ولا كتاب السياسة لأرسطو ، وما وضعه أبيقور وذينون وغيرهم من الأقدمين ، وما نشره كارل ماركس ومن أتى بعده إلى لينين . . الخ الخ ، إلا مذاهب اجتماعية قصد ذووها إحداث إصلاح عمرانى على موجبها .

فمنها ماطبقت على بعض الشعوب وعاشت دهرا ثم اضمحلت وزالت .

ومنها ماحبطت تاركة وراءها دخانا وحما . . وبعضها لم يطبق إلى اليوم على أمة من الأمم .

فإذا كان الشيء تعرف قيمته من أثره ، فانظر إلى المذاهب الاجتماعية المختلفة، وتأمل ، هل من بينها مايعادل مذهب الإسلام فى الإصلاح الاجتماعى، أويقرب منه فى سمو أغراضه ، وبعد غاياته ، واستقامة مسالكه ، وصحة أصوله ، وفى تأديته للجماعات التى أخذت به إلى زعامة العالم فى زمن لا يكاد يكفى لتطور فرد، فما ظنك بأمة .

وفى نقل ماحصله من النور العقلى والعلمى ، والتقدم الصناعى والفنى ، إلى الامم كافة .

حتى كان سببا فى حفظ التراث العقلى العالمى من التلاشى ، بل كان داعيا لإنعاش أوربا بعد أن قضت فى خدرها وجمودها ألف سنة .

وأوجب لذويه سلطان الارض،فقاموا به على سنن من العدل لا تزال تترطب بذكرها الألسنة ، وتتعطر بأريجها الأندية،وتتخذ دليلا محسوسا على أن الإنسان يستطيع أن يوفق الدين الذى ليس وراء غاياته القصوى مذهب ، وبين المدنيه التى ليس عن مفاتنها مهرب ، وأن يؤاخى بين السلطان الذى ليس فوقه مصعد ، وبين العدل الذى ليس بعده مطمح ؟ . .

فالإسلام كما ترى جاء بمذهب فى الإصلاح الاجتماعى ونجح فى تطبيقه .

وكان من أثره مارأيت ، مما لاتزال الامم الآخذة به تعمل فيه ، جهلا منها به، معاول الهدم والتحطيم ، وتكاد لا تسقط منه ركنا ، وستعود إليه بعد أن تصح من داء هذه الفتنة ، أو تصحو من خدر الجهل الذى هى فيه معاصاة له،وخروجا على أصوله .

فهل تعدى هذا الدين فيما قرره من استفظاع الجرائم التى ذكرناها ، وترتيبه عليها العقوبات الرادعة ، الحق الطبيعى الذى للأفراد والجماعات ؟

وهل قصر فى اتخاذ الاحتياطات لها من جميع الأنواع ؟

أى مشرع أو فيلسوف فى الارض لا يرى فى الزنا جريمة من أبشع الجرائم، لعدوانها على الشرف والكرامة والأخلاق أكبر عدوان .

فالإسلام قرر أن يضرب مرتكبه إن لم يكن محصنا مائة جلدة ، وأن يرجم إن كان من أهل الإحصان .

هذه عقوبة من الشدة بمكان بعيد .

ولكن أرأيت كيف أحاطها الشرع الإسلامى بما يجعلها شكلية ردعية ، أكثر منها عقوبة حقيقية ؟

فقد تطلب لإثبات الزنا أربعة شهود عدول ، يقررون أنهم رأوا الفعل رأى العين فى تفصيل لا نستطيع الخوض فيه ، مما يجعل إثباته قريبا من المستحيل .

وزاد على هذا بأن أحدا لو اتهم أثنين بوقوع هذه الجريمة منهما ، طالبته الحكومة بإحضار أربعة شهود عدول ، فإن عجز عن إحضارهم ، وعد قاذفا وضرب مائة جلدة .

وقد أوصى الشارع بقبول أو هى المعاذير فى دفع هذه التهمة .

فقد حدث أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى زنيت .

فوقع اعترافه وقعا شديدا من النبى ، فأخذ يلقنه الشبهات التى تدفع عنه الحد ، فيقول له « لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك فاخذت » .

فلم يزدد الرجل إلا إصرارا ، فلم يسع النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يأمر بإقامة الحد عليه وهو كاره .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إدرأوا الحدود بالشبهات » ، و « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا » .

وقد سار أتباعه من بعده على سنته .

فحدث يوما ، أن رأى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رجلا وامرأة على فاحشة .

فلم يستطع ـ على شدته وحرصه على إقامة حدود الله ـ أن يبت فى هذا الأمر بنفسه .

فجمع الناس وقام فيهم خطيبا وقال : « ماقولكم أيها الناس ، لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ » .

فقام على بن أبى طالب وأجابه بقوله : « يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهود أو يجلد حد القاذف مائة جلدة » .

فسكت عمر ولم يعمل شيئا .

إلى هذا الحد بلغ نظر المسلمين إلى هذه العقوبة ، فهى شكلية ردعية كما قلنا ، أكثر مما هى حقيقية .

وأما قطع اليد على السرقة ، فإن الإصلاح الاجتماعى الذى أوجده النبى صلى الله عليه وسلم كان من أصوله أن يقوم المسلمون على مبدأ تعاونى محكم البناء ، ليس فى إحدى نواحيه ضعف . وقد سلك لذلك مسلكين .

أحدهما : أن يؤخذ من رءوس الأموال نحو أثنين ونصف فى المائة للفقراء، ومن فى حكمهم ، وللأعمال العامة التى تعود عليهم بالخير واليمر .

فكان فى بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة ، ومن تدفع بهم الضرورة إلى الحدود القصوى ، وكانت الحكومة مسئولة عن وصول الحاجة ببعض الناس إلى هذه الحدود .

وثانيهما : كان على كل فرد من أفراد المسلمين واجب حتم ، وهو العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاضد ، بحيث يرفد غنيهم فقيرهم ، وإلا كان عليه وزر المقصر المستأثر .

فأكثر النبى صلى الله عليه وسلم من التوصية بالجار حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به » .

وقد جرى المسلمون على هذا المبدأ ، حتى وصلوا إلى حدود يضرب بها الأمثال فى التعاون بين الفقراء والأغنياء غصَّت بها تواريخهم . .

فقد روى حجة الاسلام الغزالى ، أن رجلا كان عند عبد الله بن عباس وغلام له يذبح شاة . فقال ابن عباس : ياغلام لا تنس جارنا اليهودى ، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة .

فقال له الرجل : كم تقول ذلك يا ابن عباس ؟ فقال : والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مازال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه !

أنظر إلى هذا الأثر من ناحية أنه تشديد فى مراعاة حقوق الجوار، ولاتنس أن تنظر إليه من ناحية دلالته على مبلغ تسامح المسلمين مع الأجانب عن ملتهم، حتى إنهم لم يفرقوا بين الناس كافة فى حقوق الجوار ..

فأى نظام اجتماعى تعاونى من هذا الطراز، حيث يسود التكافل والترافد، ويمكن فيه استصراخ الحكومة المكلفة بدفع الحاجات عن المعوزين، كيف لا يعامل العابث بأموال الناس أقسى معاملة، بل وكيف لاتقطع يده حتى يكف سواه عن مثل عمله الذى لايقصد به إلا محض الإيذاء وإزعاج الأمن ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وكيف لا يجلد رجل تسمح له نفسه الشريرة أن يشرب الخمر حتى يفقد الرشد، ثم يخرج إلى الشوارع والحارات يخيف الأطفال والنساء وربما ضربهم ؟

وكيف لا يجلد كذلك، رجل يتهم أهل الإحصان بالفسق، غير حاسب لما ينتج عن عمله هذا من حل روابط الأسر، وهدم أركان البيوت، ثم يعجز عن الاتيان بأربعة شهود عدول، يعززون بشهادتهم مايقول ؟

والذين يفسدون فى الأرض بإضرام نيران الفتن، وقلب النظم، وإزعاج الأمن كيف لاتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو لا ينفون من الأرض ؟

هنا أنظر لرحمة الشارع فقد قدم قطع اليد والرجل استفظاعا لهذه الجرائم التى تضيع فيها أرواح بريئة، ثم فتح للحكومة باب الرحمة بخيرها بين هذه العقوبة والنفى.

نعود إلى الجلد فنقول : ليس فى هذه العقوبة مايؤاخذ عليه، فقد كان معمولا بها فى إنجلترا وغيرها، وفى السجون المصرية أيضا .

ولابد لنا من التنويه هنا بحال الشهود، فإن القضاء الاسلامى لايقبل، وبخاصة فى الحدود، شهادة شهود يجمعهم المتقاضون من هنا وهناك، فيشترط فيهم أن يكونوا من أهل العدالة، وأن يشهد شهود آخرون بأنهم أهل الشهادة .

وفى الحادثة الآتية علم بما يجب أن يكون الشاهدعليه فى الإسلام من الصفات، وبما كان عليه هذا الأمر عند أسلافنا الأولين من الخطورة .

أدخل رجل على عمر بن الخطاب فى عهد خلافته ليشهد فى قضية ، فطلب منه أن يحضر له من يشهد بأنه عدل ، ففعل .

فلما مثل شاهده بين يديه قال له الخليفة : أتعرف فلانا حق المعرفة ؟

فقال الرجل : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال له : أأنت جاره صباح مساء، لتعرف مدخله ومخرجه؟ فقال الشاهد لا.

فسأله عمر : أعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟

فقال المزكى : لا . .

فقال له الفاروق : أصاحبته فى السفر الذى يتضح فيه ماهو عليه من مكارم الأخــــلاق ؟

فقال له الرجل : لا . .

فقال له عمر : لعلك رأيته قائما يصلى فى المسجد يهمهم بالقرآن ؟

فقال الشاهد : إى والله يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر : اذهب ، فلست تعرفه .

فالمسلمون الذين قاموا على هذه النظم المحكمة ، قد تمكنوا ـ فى عشرات من السنين من الظفر ـ بزعامة العالم كافة فى العلوم والفنون والسياسة ، ومدوا ملكهم إلى بقاع لم يظلها علم غير علمهم إلى اليوم .

فاختر لنفسك الآن مايحلو . . أتود أن يكون لأمتك ملك لم يتحقق لأمة قبلها ، وزعامة العالم والسياسة وفيها هذه الحدود ؟

أم تؤثر أن لا يكون لأمتك شأن يذكر بين الأمم ، ولا تكون فى قوانينها مثل هذه العقوبات ؟

حكم الآيات المتشابهة

آخر مطلب للأوساط من مطالبهم التي جمعناها وتكلمنا فيها هو ، أن يكون الدين واضحا سائغا ، ليس فيه مايحتاج لتأويل ، ولا مايستعصى على التعليل .

هذا مطلب لاينال من دين يصل بين الناس وبين العلم الروحانى المشحون بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عالم الحقائق الاولية ، عالم الاصول الخالدة ، عالم القوى العلوية ، عالم الإطلاق المحض .

فإذا قارنت بين مدركات عقلك وبين حقائق هذا العالم ، تحققت أن تحصيل القليل من العلم عن شئونه ، يعوزه الشيء الكثير من التكلف والمحاولات ، ومن صرف الالفاظ عن ظواهر مدلولاتها ، ومن تشبيه أمر بأمر ، لم يمت إليه بصلة ، ولا هو من جنسه ، مادة ووجودا . .

أرأيت لو عهد إليك أن تعبر عن النور لمكفوف البصر ، فماذا كنت فاعلا ، سوى أن تحوم حول الموضوع ، بما يدركه صاحبك بحواسه الأخرى ، والنسبة بين مدركاتها والمدركات البصرية منقطعة .

فتضطر للتشبيه البعيد والقياس مع الفارق ، ولجميع العلل التي يأخذها رجال المنطق على أهل التعبير .

فإذا نظرت إلى ماقلت وماقررت ، رأيت أنك قد أتيت بعبارات تحتمل الخوض فيها ، وتصل بالخائض إلى كل غاية ، إلا الغاية التي رميت إليها .

هذا إذا عهد إليك هذا الأمر لمكفوف من درجتك العقلية .

فما ظنك لو كان من طبقة العامة الذين لايدركون الفروق بين مدلولات الالفاظ ، ولا الحدود بين مؤديات المعانى ، ولا الإطلاق والتقييد ، ولا اللازم والملزوم ، إلى غير ذلك من ضرورات التعبير ؟

ألا تعلم أن الناس ، سوادهم الأعظم ، عوام، وأن هؤلاء مادة الأمم وأساسها البعيد الغور ،وأن الدين أكثر مايتوجه إليهم بالمواعظ،وأشد مايتوعدهم بالمثلات، وأكبر مايهيجهم إلى طلب المجد ، ويثيرهم إلى قلب النظم .

فهو من هذه الناحية فى حاجة إلى أن يفتح لهم إلى عالم الملأ ، كوة يطلون منها على خيال مما فيه من قوى الحكم والتقدير ، وشئون التكوين والتدبير .

ونافذة أخرى إلى عالم الحياة الخالدة يشرفون منها على طيف مما ينتظر الناس فى تلك الدار ، من ثواب على فضيلة ، أو جزاء على رذيلة .

فهل تريد أن يكون ذلك الكشف لهم ، على ماعليه حقيقة الحال ، وأقوى العقول وأرقاها لا تستطيع أن تتطاول إليها ؟

فما ظنك بالدهماء ، ومنهم الذى لايدرك مافوق مأكله ومشربه .

ومنهم الذى إن رأى غير مايعقله ، نفر منه وازدرى بالقائلين به ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » .

فالدين أحوج المعقولات البشرية إلى استخدام المجازات والكنايات والتشبيهات البعيدة ، والقياسات مع أكبر الفوارق وأشدها شسوعا .

إلا أن الإسلام ، وهو الدين العام الخالد ، قد وضع لهذا الأمر نظاما وحد للعقل فيه حدودا ، فلم يغمط الدين حقه فى استعمال الألفاظ الموضوعة لتلك الشئون العلوية ، ولم يكلف العقل أن يصير أسير هذه التعبيرات البعيدة عن مؤدياتها كل البعد ، فيجعلها لنفسه عقيدة صورية ، إن سلم بها الناس فى جيل ، شذ عنها أبناؤهم فى جيل آخر .

فقرر هذا الأصل الأصيل وهو : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

ومعنى هذا أن فى القرآن آيات محكمات الوضع ، واضحات المعانى ، لايستعصى فهمها على إنسان ؛ ولا تحتاج إلى صرف ألفاظها عن ظواهرها .

هى أصل الكتاب وأسسه ، وعليها يقوم صرح هذا الدين فى المعتقدات والعبادات والمعاملات .

وفيه غير هذه ، آيات متشابهات ، أى محتملات لمعان كثيرة ، لاتتضح مقاصدها ؛ لكونها مجملة أو غير موافقة للظاهر ، فهذه فى حاجة إلى تأويل . وهو لا يوصل إلى علم صحيح ، للعلة التى ذكرناها آنفا .

فأما الذين أشربت قلوبهم الضلالة ، فيتعللون بظاهر ألفاظها ، أو يتناولونها بتأويل باطل ، طلبا لفتنة الناس بالتشكيك ، أو رجاء أن يفسروها على ماتشتهى أهواؤهم ، والحال أنه لايعلم تأويله إلا الله .

وأما المتمكنون من العلم فيقولون آمنا بالكتاب كله؛ محكمه ومتشابهه ، وما يتذكر الضرورة التى تقضى بهذه المحاولات إلا أصحاب العقول .

فالإسلام بهذه الآية قرر بنص لا يحتمل التأويل ، أنه لايطالب الناس إلا بما أتى به محكم الوضع ، جلى المعانى ، لاتعترك فيه العقول ، ولا تحار فى كنهه الأفهام .

وأما ما لايدركه العقل ، وما تقصر عن بيانه الألفاظ ، وماتذهب المدارك فيه كل مذهب ، فالناس غير مطالبين به .

وزاد على ذلك فقرر أنه لايحاول تأويل تلك الآيات إلا الزيغ ، فإنها تتعالى حتى عن التأويل .

فهل معنى هذا أنه حرم التأويل على وجه الإطلاق ؟

لا ، فانه قد لا يكون حتما لامناص ، متى تعارض نصان من الكتاب ، ومتى تعارض نص من الكتاب وعلم صحيح .

فمثاله من الأول قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »
وقوله : « يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ »
وقوله : « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » .

فالآية الأولى ، تنص على أنه ليس كمثله شيء ، نصا لا يحتمل تأويلا .

والآيات الآخر ، يدل ظاهرها على أن له وجهـا ويدا وعينا ، وهو مالا يثلج عليه الصدر ، ولا يتفق وحكم العقل ، وقد قضت به محسنات التعبير ليس إلا .

فهذه يصار فيها إلى التأويل ، وقد جرى على ذلك جميع المسلمين إلا طائفة لا يعتد بها دعيت بالمشبهة ، والإسلام يطلق الحرية لكل عاقل ، ولا يسد الطريق فى وجه باحث .

وأما النوع الثانى ، وهو أن يتعارض ظاهر النص مع حكم العقل والعلم ، فهو أجل أصل أتى به هذا الدين ، وأمنع وقاية تحميه شر الجمود الذى وقع فيه أهل الأديان كافة ، وله أكبر الأثر فى بقائه دينا عاما خالدا ، وإلا طغت عليه تيارات العلوم ، وتمردت عليه قويات العقول ، فوقفته عند حد وسارت قدما تكشف المجاهيل ، وتقرر المعالم ، حرة طليقة لا يقيدها شيء ، تاركة الدين قاصرا على مبان أقيمت له فيها رجال لا تعدم منها فى شيء ، إلى أن يعصف عاصف جديد من انقلاب وشيك ، فلا يبقى من آثار الدين شيئا .

ولكن الإسلام من أية الجهات ، تستطيع العلوم أن تطغى على الإسلام ، ومن أية النواحى تثور العقول عليه ؟

أمن مثل قول الكتاب : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ » .

وقوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » أى : بسطها .

وقوله : « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » .

وقوله : « سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً » الخ الخ ؟

كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الأصولية التى انفرد بها هذا الدين وهى : أنه لو تعارض نص وعقل أو علم صحيح ، أول النص ، وأخذ بحكم العقل أو العلم.

وقد أول آباؤنا من هذه الآيات ، ماخالف عقولهم، أو ناقض العلم الصحيح.

ونحن نجرى على سننهم فنئول مايخالف عقولنا منها .

جرى المسلمون الأولون على هذا السمت ، فكان تطورهم العلمى يمدهم بالمعلومات ، وعلماؤهم يؤولون الآيات حتى تآخى العلم والدين ، وسارا كفرسى رهان ، لايسبق أحدهما الآخر . .

فلم ينقسم الناس إلى فريقين ، فريق للدين يقل كل يوم عددا ، وفريق للمدنية يزداد كل يوم مددا .

ولكن كانوا فى وحدة لا انفصام لها ، فبلغوا إلى مالاتبلغه أمة قبلهم ، من بسطتى الدنيا والدين .

حظ العامة من الإسلام

العامة وإن كانوا أكثر الطبقات عددا ، إلا أنهم لا يستطيعون أن يستقلوا بنظر ولا أن يؤتمنوا على تفكير . لذلك كانوا فى كل دين ، وفى ملتنا هذه أتباعا للخاصة من العلماء العاملين ، وأوساط المفكرين.

فهم لا يقتضون من بحثنا هذا ، أكثر من هذه السطور .

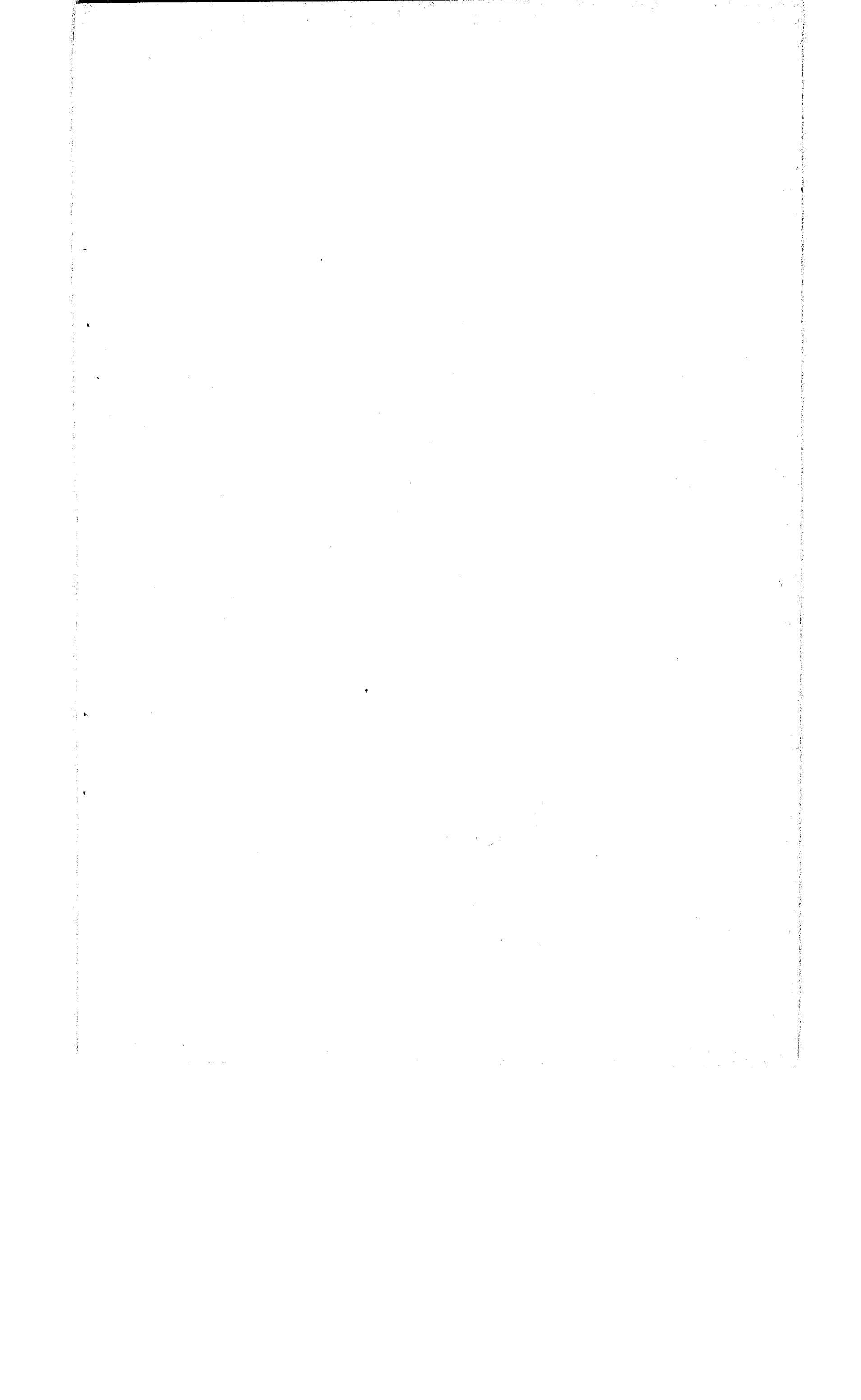
وكل مالهم فى أعناقنا من الحقوق ، أن نحسن تعليمهم ، ونعمل على نقلهم مما هم فيه إلى مافوق درجتهم من الدرجات .

فإن الإسلام لم يقسم الناس إلى طبقات ، ولكنه جعل معارج الترقى شائعة بين المستعدين للعروج عليها ،فارتقى إلى أرفع مراتب العلم والفلسفة أفراد من العامة فأصبحوا لملوكهم أئمة . ولم يستثن الإسلام حتى العبيد السود ، فكان منهم علماء أعلام ، ووزراء عظام ، بل وملوك فخام .

وفى البحث التالى ، ننظر فى حظ العالمين كلهم على اختلاف أديانهم ، ونحلهم من هذا الدين . .

فهل أصابهم منه شر مستطير ، وبلاء كبير ، كما يحدث من آثار كل انقلاب اجتماعى خطير فى بقعة من بقاع الأرض .

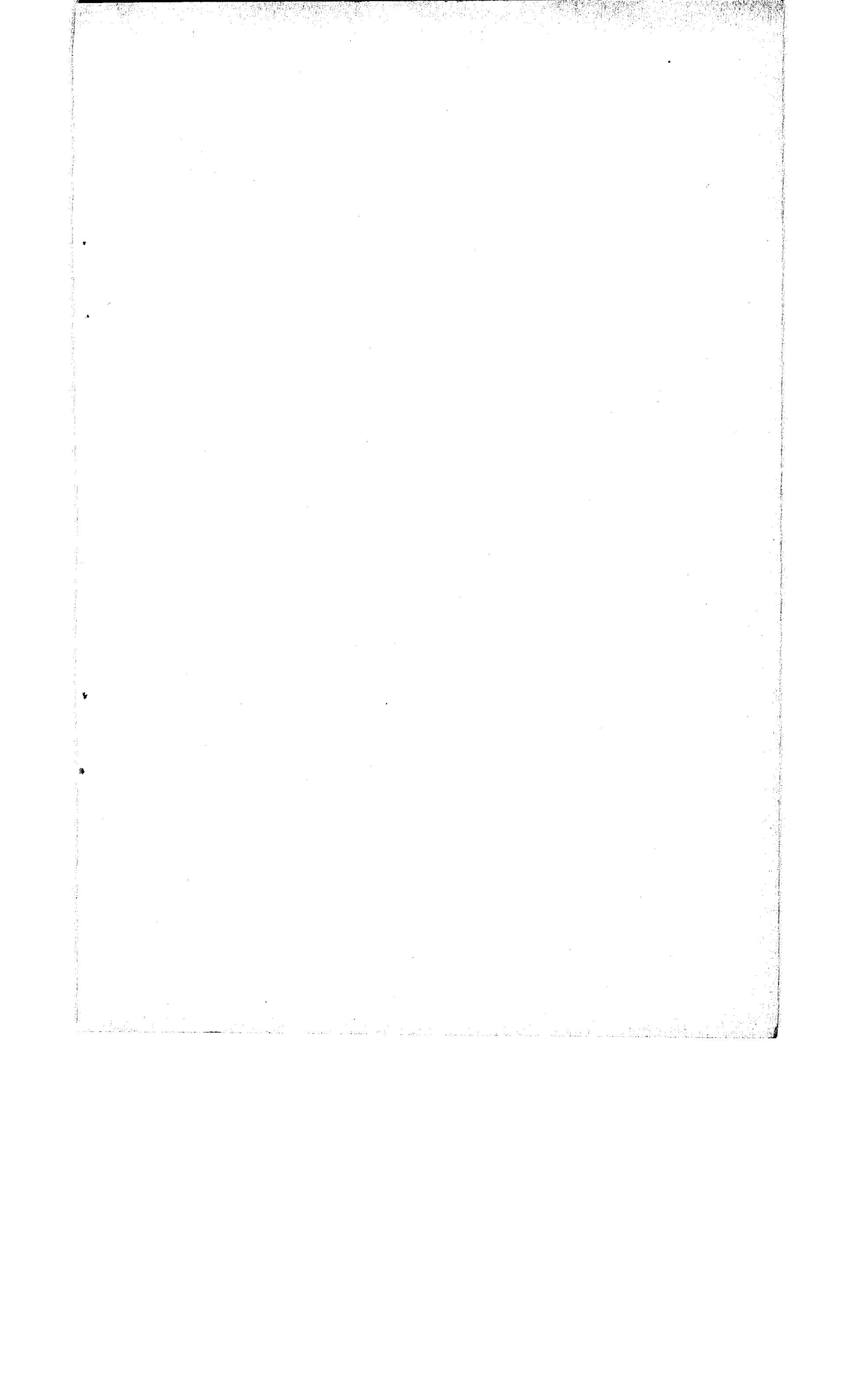
أم نالهم خير عظيم وانتقال كريم ، كما هو شأن كل انقلاب شريف الغايات والمقاصد فى الأرض ؟



الفصل الرابع

أثر الإسلام فى العالم

* كيف أثر الإسلام فى كافة شعوب العالم ؟
* حظ الكون من الإسلام
* خط الدفاع الأخير
* خاتمة



كيف أثر الإسلام فى كافة شعوب العالم ؟

لامشاحة فى أن كل انقلاب اجتماعى يحدث فى أمة من الامم لاتقتصر آثاره عليها فكما يفضى فيها إلى زوال عهد قديم بما كان عليه من دين وتقاليد وموروثات وأسر مقدسة وبيوتات شريفة ، كذلك يفضى فى جاراتها من الامم إلى سقوط بعضها وفناء البعض الآخر .. وتمتد الصدمة التى يحدثها إلى أبعدمما يتخيله الراءون، حتى يعم الامم كلها على نسب مختلفة .

فلا يصح أن ينظر — والحالة هذه — إلى ما أدى إليه الانقلاب من حوادث جسام فحسب ، ولكن إلى الروح العام الذى أوجده فى العالم .

هل هو روح شغب واضطراب وتدهور ، أم روح نظام وطمأنينة وترق ؟

فلننظر الآن فى نتائج الانقلاب الذى أحدثه الإسلام وما أصاب العالم منه ، وفى الروح الذى أوجده فى الارض ؟

ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا بعد معرفة ماكان عليه العالم على عهده ودعى هو للتأثير فيه .

وقد رأينا أن ندع الكلام فى هذا الموطن لمستشرق عليم من الاجانب ، قام بهذا الأمر خير قيام ، فى مقدمة فهرست وضعه لآيات القرآن باللغة الفرنسية هو المسيو « جول لابوم » قال ما ترجمته الحرفية .

« لاجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه أولا ، الإلمام بحال الداعى فى ذاته ، ولاجل أن يقدر قدر دعوته ، يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير فيها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصنا بها المشروع العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية . .

« حول ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى ، كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن .

فكان شعب (الويزيغو) الآريين فى أسبانيا وفرنسا الجنوبية ، يصاولون الملك « جوستنيان » ، ثم أجبروا إلى الدخول معه فى حرب جديدة ، تخلصا من سلطة القواد الذين جاءوهم بتلك المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين، لا مجرد ولاء المساعدين المنجدين .»

« أما فى فرنسا نفسها ، فكان أولاد « كلوفيس» هذا» متغادرين متسافكين، وكانت الحروب التى شبت بين المملكة الويزيغوتية « برنهو » والمملكة الفرنكية « فريديجوند » تهيء التاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد .

« أما فى إنجلترا فكان الإنجلو ينازعون الساكسونيين الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية « كيميريس » وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة .

« أما فى إيطاليا فكان اسم الرومان ، وهو ذلك الاسم الشامخ، قد فقد قيمته القديمة ، وكانت رومية وهى الشظية الأخيرة ، أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها إلى مركز دينى بسيط ، ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكر عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دنيا أصليا .. فكانت تهيء نفسها لأن تكون مركز البابوية ، وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة « شرلمان » أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان .

ولكنها ، مع ذلك ، لم يسعها إلا حمل نير « الهيروليين » و « الاستروغوتيين» وأباطرة المملكة الرومانية واللومباردين الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .

« أما المملكة اليونانية ، فكانت قد نسيت مجدها القديم فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية .. مثلها منها كمثل الوبنة ذات الضوضاء .

وكان شرق أوربا مقلقا جنوبها من أول مصب نهر الرين من جهة الشرق .

فكان الاسنديناوفيون والنورفيجيون والدانماركيون ، يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه الغوتيون والهوتيون الذين احتلوا تركيا ومقدونيا ، ولومبارديا وإيطاليا سواء بالقوة أو بالخديعة ..

« فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى، وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية ..

« والتصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيوريتان ، مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى ، لاعلاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة .

أما هذه فوحشية حربية ، تلعب بالأوراح ، وتتمرغ فى الأوحال . .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوربا فى شىء .

فمملكة تيبت والهند ، التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن ، قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية . . كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالمية التى هى فى حوزة الروسية الآن فكانت غير معروفة على الإطلاق .

« أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب، وخاصة من لدن تجريدة الإسكندر المقدونى ، فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما إفريقيا ، فإن هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم، وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام مجموعين من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم مصر ، وعاملين على جعل هذا البلد ، ذى المجد القديم ، كالجثة المحنطة ، عديمة الحس والحركة

وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصبة وقتئذ ، الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى الفنداليين .

الخلاصة كان جو العالم ملبدا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل مكان .

وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على الخير .

وكان أكثر الرؤساء كسبا للثقة والطاعة ، أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك .

ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ، ولا يؤثر عليها تأثيرا حاداً — وإن كان وقتيا — إلا شىء واحد ، هو الغنيمة ، وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان، ورجال الحروب ، وفقراء الحرائين ، وبسطاء المتسولين ..

ولولا شعاع ضئيل من الحكمة ، كان يتألق فى بعض العقائد الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقى فى المستقبل، لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقوده بغطرسة زعماء الهيمية واستحالت إلى وحشية محصنة .

« مع هذا كله كان هنا لك ركن من أركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك الحكمة أهله ورجاحة عقولهم، وإنما كان بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى كان يقال إنها متمدنة .

ذلك الركن ، هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوربا إلا عن بعد .

وما كان يصلها ذلك اللغط إلا غاية فى الضعف والضآلة، وكانت تجهل وجود الهند والصين .

فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا من أخبار الانتصارات والهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوره إلى تبعية أباطرة القسطنطينية تبعه أسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها .

وعلى أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة . وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا يسيرا يسيرا إلى بحر قزوين .

ومما يشبه المساتير الدينية ، أنها بقيت منفصلة عن مصر ، التى أغار على جنوبها العرب الرعاة .

ولم يجلوا عنها تماما إلا بعد أن جلا عنها بعض إخوانهم المتأخرين - وهم الإسرائيليون - تحت قيادة موسى ، حينما استرد المصريون السلطة ، وعاملوهم معاملة البهائم .

« وأما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة ، فهى بلاد الحبشة أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين ، والتى كانت بجانبهم

نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين ، وبين يونان القسطنطينية والفنداليين ، فكانوا لايحلمون بوجودها » .

ثم قال : قال المسيو كوسان دوبرسو فال ، فى كتابه « تاريخ العرب » : «إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق ،كانوا خاضعين للفارسيين .

أما المتبدون منهم ، فكانوا فى الواقع أحراراً لا سلطة لأحد عليهم .

وكان عرب سورية دائنين للرومان .

أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز ، الذين ساد عليهم التبابعة — وهم ملوك بنى حمير — سيادة وقتية،فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس، ولكنها فى الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل » .

ثم تابع المسيو جول لابوم القول فقال : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان .

قال المسيو « دوزى » فى كتابه (تاريخ عرب أسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية ، والعيسوية ، والوثنية .

فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان،أشد الناس تمسكا بدينهم،وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم .

نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين .

ولكن ماوجد منه فمنسوب إلى اليهود وحدهم .

أما النصرانية فلم يكن . لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لايعرفونها إلا معرفة سطحية .

وكانت هذه الديانة تنطوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حمى كثير الاستهزاء .

أما الوثنيون الذين كانواهم السواد الأعظم من الأمة ، فكان لكل قبيلة ، بل وأسرة منهم ، آلهة خاصة .

والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء . .
فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك ،كانوا يقتلون الكهان إذا لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات ، أو لو عولوا على فضحهم عند الاصنام أن قدموا أما ظبية بعد أن ينذروا لها نعجة ، وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ، ولم تسعفهم بآمالهم » .

وقال المسيو كوسان دوبرسو قال : «ومن العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس .

فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنولخم وجرهم ، كانوا يسجدون للمشترى .

وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنوطيء ألّهوا سهيلا .

وكان بنوقيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية .

وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية » .

وقال المسيو كوسان المذكور أيضا . « كان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا قضى نحبه

ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة .

فكان هؤلاء الاخيرون ـ إذا مات احد أقربائهم ـ يذبحون على قبره ناقة ، أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا ، معتقدين أن الروح حين تنفصل من الجسد تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى ، وهو نوع من البوم ، لا تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائحة ساجعة ، بأخبار أولاده .

فإذا كان الفقيد قتيلا ، تصيح صداه قائلة : « أسقونى» ولاتزال ترددالكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه .

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين العبارتين على الاستاذين المذكورين :
« وكانت طباع العرب وأخلاقهم لاتدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لايكادون يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل والقبيلة (وهى نقطة تلفت النظر) تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها . . ولو لم يكن

(وهو أمر أغرب من سابقه) إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم داعيا إلى الالتفاف بنوع خاص .

ثم قال : قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة: كان العرب يشربون الخمر . ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به ويلعب الميسر .

وكان من عاداتهم أن الرجل له أن يتزوج ما تسمح له به وسائله المعيشية .

وكان له أن يطلقهن متى شاء هـواه . وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها .

ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد وأزواج ونساء الأب .

وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجا ممقوتا .

وكان لديهم عادة أفظع من كل ما مر ، وأشد معارضة للطبيعة، وهى وأد الأهل لبناتهم ، أى دفنهن أحياء .

« هذا كله لا يشير إلى أن العرب كانت تعوزهم المبادىء الخلقية الصالحة التى يمكن تقويمها وتهذيبها . . فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما .

وقد عرفوا بالكرم والشجاعة ، والاستعداد للبذل والتضحية .

« الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب . كانوا قليلى العدد جدا ويبدو أنهم لم يكلفوا أنفسهم الدعوة إلى مللهم .

فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثر على مثال الصينيين واليابانيين ، لانرى منهم إلى اليوم خاصة ، التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية .

ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب ، فلم يك ذلك إلا نتيجة لاشتراكهم فى الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الامتين .

تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم فى حب الكسب، وتشابهم فى الاستعداد

لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر ، لنيل كسب أو حطام .

ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات ، أدنى ترق أدبى .

أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئا إلى بلاد العرب ، هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى المملكة الرومانية .

ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت البصر تألقه .

وفى حالة المسيحيين بالحبشة اليوم نموذج لذلك .

فانه لا يمكن أن يتخلى الإنسان بمدركات العقائد السامية من دين ، بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

وفى هذه الاحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ، ولد محمد ابن عبد الله فى ٢٩ أغسطس سنة (٥٧٠) الميلادية .

تعليق على هذه الفذلكة التاريخية

يرى القارىء من الفذلكة التى كتبها المستشرق المسيو (جول لابوم) فيما كان عليه العالم وقت ميلا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، أنه كان فى حاجة ماسة إلى صيحة من صيحات الحق المعهودة فى بعض أدوار الانقلابات البشرية ، تنبه الغافلين وتوقظ النائمين .

ثم تهيب بهم إلى النظر فى أنفسهم ، والتفكير فى مصيرهم ، والعمل على التخلص من أيدى اللاعبين بهم ، والمقامرين بحياتهم .

وإلى قارعة من قوارع القهر ترد عادية زعمائهم وتكبح ظلم قادتهم .

وإلى قبس ساطع من نور الحكمة يكشف الحجب المسدولة على أعين الناس ، والغلف المضروبة على قلوبهم ، لكى يربأوا بأنفسهم أن يعيشوا أغناما ويموتوا أغناما .

نعم وهذا هو الذى كان ، فبعث الله خاتم النبيين إلى شعب يجهل وجود نفسه فضلا عن وجود غيره ، ولا يحدث نفسه بنهوض ، فضلا عن أن يفضى به إلى سواه .

شعب كان قد نضبت حيويته ، حتى صارت لا تنجب بعض ما تنجبه الأمم من قائم بدعوة أو مهيب إلى حياة .

وما هى إلا سنوات تعد على أصابع اليد ، حتى رأينا ذلك الشعب الذى كان جامدا بالأمس يتطلب لقاء أكبر دولة فى الأرض ، وهم الرومانيون ، فاصطدم بجيوشهم فى سورية ، فسحقها بكتائبها المدربة ، وحطم معاقلها المشيدة ، واجتاز حوائلها المنيعة ، وقذف بها إلى مابعد حدود تلك البلاد ، وأجبرها على الاستسلام والصبر على الهوان ، والرضاء من الغنيمة بالإياب .

وفى الوقت نفسه ، انقضت على فارس ـ وهى تلك الدولة القديمة التى كانت تمثل كل ما كان فى الشرق من خيلاء الحكم المطلق ، وغلواء الأصول الرجعية .

وما هى إلا صدمة صادقة ، حتى تداعى صرحها الشامخ ، وأصبحت فى ذمة التاريخ .

كان هذا فى أقل من عقدين من السنين ، فكان أثره كالصاعقة ، انقضت على أكداس من العهن المنفوش ، فلا تسل عما استتبع ذلك من الدوى الهائل فى أمم لم تتعود مثل هذه الصدمات .

ولم تكن تحلم بأن فى العالم قوة تستطيع أن تحدث فيها هذه الرجة التى زلزلت الأرض زلزالا .

ثم ما هى إلا عشرات من السنين ، حتى اندفعت تلك العصبة إلى أوربا ، لا لتستغل الضعفاء ، وتتضخم بامتصاص مواردهم ، كما اعتادت الأمم ذلك من الفاتحين الأولين ، بل ومن أصحاب المطامع من أبناء جنسهم .

ولكن لتخرجهم من الظلمات إلى النور بفتح دور العلم وقبول الكافة فيها غير ناظرة لأديانها ونحلها . . فكانت كالشمس تشع على العالم نورا ساطعا ، وحرارة محيية .

فجمعت ما وجدته من تراث العقول معطلا فى بطون الكتب، فنقلته إلى لغتها، وشرعت تزيده من جهود علمائها ، وبحوث فلاسفتها ، مطبقة إياها على العمل ، حتى أصبحت بيئة العلم ، ومعدن الصنائع والفنون، يعشو الأوربيون إلى نارها ، ويستضيئون بنورها .

وكان إخوانهم فى الشرق قد سلكوا من ناحيتهم هذا الطريق نفسه .

فأصبحت هذه الجماعة الإسلامية — بقسميها — ملاذا لكل متعطش لعلم ، ومستهد إلى حق ، ومتطلب لثقافة .

فانتقل العالم كله — تحت ظلها الظليل — من الجمود الذى كان فيه ، والهوان الذى كان عليه ، والغيبوبة التى كانت ألمت به ، إلى حياة جديدة ، ونشاط لم يكن للناس من قبل .

وبعد أن كانت الأمم لا تنتظر إلا كسفاً من الظلمات، وتارات من الغارات، أصبحت تتطلب من ناحية هذين المركزين نورا يهديها إلى الطريق ويسوقها إلى العمل.

وما زالت تدب الحياة فى أشباحها . حتى تألفت منها جماعة تقوم بأمره .

لا أنتصار القديم يسومون آحادها الخسف، ويصبون عليهم أصوات العذاب، ويزهقون أرواحهم ، لا لشىء ، غير أنهم يتطلبون النور والحياة ، حتى تم لهم الغلب فى القرن السادس عشر .

دهر طويل قضوه فى الكفاح والمجالدة ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يرفعوا كل ما ألقى على عقولهم من السدف ، وعلى نفوسهم من الكسف ، قبل مرور هذا الزمن . وكان المسلمون هم الدافعون لهم إلى هذه الحركة .

قال العلامة « درابر » المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » :

« سلك علم العرب إلى أوربا المسلك نفسه الذى سلكته أدبياتهم إليها .

وذلك أنه انهمر عليها من طريقين : جنوب فرنسا من جهة الأندلس ، وطريق جزيرة « صقلية » .

ومما ساعد على انتشاره فى أوربا ، اعتزال البابوات فى مدينة « افينيون » ، والتفرق العظيم الذى كانت تعانيه المسيحية إذا ذاك ، لهذا تمكن علم العرب من ترسيخ قدميه فى جنوب إيطاليا .

ثم قال : « وبرسوخ قدمى العلم فى جنوب إيطاليا ، امتد رواق سلطانه على جميع البلاد الإيطالية وساعد على انتشاره وتكثير أنصاره هنالك ، زيادة عدد الجمعيات العلمية . وكان ذلك على مثال ما وجد فى غرناطة وقرطبة تحت سلطان العرب »

ولم تزل تكشفات العرب تدخل إلى أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وتصادف مقاومة عنيفة .

قال العلامة « داربر » فى كتابه : إن عمل التطعيم (فى النباتات) الذى اكتشفه المسلمون ، حمل إلى أوربا سنة ١٧٢١ من طريق إستانبول .

فصادف فى إنجلترا مقاومة عنيفة من رجال الدين، لولا تدخل الأسرة المالكية .

وقال العلامة « سديو » أحد وزراء فرنسا فى كتابه تاريخ العرب » :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم إلى أوربا . . فكانوا هم سببا انهضتها وارتقائها .

ولم يكتف المسلمون بأن يكونوا معلمين الأوربيين وملقنين لهم النهوض والمدنية . . ولكنهم أسسوا فى بلادهم جامعات ، وأقاموا مرصد ، باعتبار أنها كانت تحت سلطانهم ، فبقيت لأهلها بعد جلائهم ، وأثمرت ثمراتها اليانعة لهم ،

فقد قال العلامة « داوبر » فى كتابه عند ذكر المدارس الطبية عند العرب :

« وأول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا (أوربا من أقصاها إلى أقصاها) هى المدرسة التى أسسها العرب فى بالرم من إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها ، هو ما أقامه المسلمون فى أشبليه بأسبانيا .

ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ؛ فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ونهضوا بها ، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

هنا قد يستغرب بعض القراء هذا الأمر ، ويقولون إذا كان العرب هم أول من أسسوا المدراس الطبية ، وأقاموا المراصد فى أوربا ، فكيف كان شأنها على عهدهم ، وعلى أية حالة كان أهلها يعيشون ليمكن أن يعرف مبلغ ما أثمرته مدينة العرب فيهم ؟

نقول : نعم : إننا نحدثك عن ذلك منقولا عن كتاب « المنازعة بين العلم والدين » للعلامة « درابر » قال :

« إن أوربا فى ذلك العهد ، كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن .

فكانت تنتشر منها روائح قتاله ، اجتاحت الناس وأكلتهم ، ولا مغيث لهم .

وكانت البيوت فى « باريز » ، « ولوندره » تبنى بالخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية .

أما الابسطة فكانت مجهوله لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض .

ولم يكونوا يفرقون المداخن ، فكان الدخان يطوف البيت ، ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . .

فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنواع الأمراض والإصابات الخطيرة

وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ ، أمام بيوتهم ، أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ، ولا رقيب ولا حسيب .

وكانت الأسرة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال .

وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسما » .

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة ، ولم يكن فى الشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح » .

« وهذه الجهالة كان من أثرها على أوربا ، أن عمتها الخرافات والأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وكثرت أحابيل الدجالين .

وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ولم يلتفتوا لأمر النظافة .

فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكا ذريعا ، حتى إنها انتشرت فى أوربا عدة مرات ، فاجتاحت الملايين من أهلها فى أيام معدودة .

وقد كان الموت فى أوربا فى هذه العصور بنسبة واحد إلى ثلاثة وعشرين ، فصار اليوم واحد إلى أربعين » .

ولكى يدرك القارىء الفرق بين هذه الحياة الاجتماعية وبين حياة العرب فى بلادهم . نأتيك بطرف مما ذكره العلامة « درابر » نفسه فى كتابه المذكور آنفا قال :

« لم تكن أوربا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرقى مدنية ، ولا ألطف رونقا ، من عواصم الأندلس على عهد العرب .

فقد كانت شوراعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطه أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط ، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد ، وتهوى صيفا بالنسمات المعطرة عن طريق إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زاهرا .

وكانت المدن والخلوات تقام بها الاحتفالات التى كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب .

وكانوا بدل التهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين ، تتميز مآدبهم بالقناعة .

فكانت الخمر محرمة عليهم ، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تمشيهم حول أشجار البرتقال ، يسمعون قصة مسلية ، أو يتجادلون فى موضوع فلسفى متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم : إنها لو كانت بلا آلام ومتاعب ، لنسوا حياتهم الآخرة .

وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة .

هذا ماكان عليه فى أسبانيا ، فقدر بعد ذلك مبلغ ما أفاده الأوروبيون من العرب من نعمة العلوم والصنائع والفنون ، وما استتبع ذلك مظاهر هذه المدنية الساحرة

ولا تسل عما أحدثته مدينة أوربا فى كل الممالك المتصلة بها والبعيدة عنها .

وكل ذلك يرجع الفضل فيه إلى المسلمين. فلولاهم لبقيت أوربا فى غيابتها إلى اليوم، ولم تنل منها أمم المعمورة مانالته فى التقدم والمدنية إما مباشرة أو بالواسطة.

فالأمم جميعا تدين لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، بما هى عليه من حياة وقوة ، وبما فى نهضتها من الروح المؤدى إلى التكمل والعمران والمدنية .

أليس هذا مصداقا لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » ؟

حظ الكون من الإسلام

لكل شيء حظ من الإسلام .. فالجمادات بحثه على إحياء مواتها ، والنباتات بتحريضه على التأمل فى أنواعها ، وفى الإبداع المفاض على أجزائها والحيوانات بأمره بالعناية بها . والشعوب بحضه على احترام حقوقها .

قد نالت من هذا الدين حظوظا موفورة تضمن لها وجودها ، وتسمح لها بالتطور فى حدودها .

فهل علمت أن الكون فى لا نهايته وعظمته ، لم يحرم نصيبه منه أيضا .

فكان هذا الدين رحمة شاملة ، ونعمة على العوالم سابغة ؟

أى شيء أجل قدرا، وأعظم أثرا، فى نفس المكبرين لشأن الكون، والمعتقدين بأنه مستقر جميع القوى ومستودع كل ما يتخيل من الخير ، من أن يجعله الإسلام مفزعا للسالكين إلى الله، يستهدون بمعالمه فى حيرتهم، ويستأنسون بآياته فى تأملهم، ويسيرون على ضوء هدايته فى تطورهم ؟

ألم يقل كتابه فى ألوان شتى من البيان : « قُلِ أنْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

ويقل : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ؟ » .

ويقل : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » .

ويقل : « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

ويقل : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

ويقل : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » .

هذا ومن يتبع ما ورد فى الكتاب من ذكر الآيات المودوعة فى الحيوانات والنباتات الشاغلة لسطح الارض . حتى ما حقر من حشراتها كالنمل ، والنحل ، والبعوض ، وفى المياه والأنهار ، والسحب ، والرياح ، والجبالا ، والوديان ، وفى كل ما يقع تحت الحس من أشيا. الكون ، حتى اختلاف الالوان واللغات ، وفى جمله النظر فى كل هذا طريقا للاتصال بالروح العام ، وجلب الطمأنينة إلى إلى النفوس المتولهة إلى الدخول فى ملكوته .

قلنا : من يتبع هذا كله فى الكتاب الكريم . يتحقق أن هذا الدين يفتح باب الطبيعة على مصراعيه فى وجه ذويه ، ويدعوهم للتفكير فى جميع كائناتها ، ما جل منها وما حقر ، لا إرضاء لشهوة العقل ، واستكمالا لحظ النفس من العلم فحسب..

ولكن للوصول إلى عالم النور المحض ، والعروج إلى مستوى الكمال الذى تتخيله النفس ولا سبيل إلى طمأنينتها المرجوة إلا بالوصول . وهذا أسلوب لم يتوخه دين من قبل ..

لذلك اندفع المسلمون وراء العلم اندفاعا لا هوادة فيه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بست سنين كما يقول العلامة « دارير » فى كتابه المنازعة بين العلم والدين ، وكما هو الواقع المحسوس .

فجمعوا فى سنوات معدودة بين علوم الهند ، والفرس ، واليونان الاقدمين ، استخرجوها من مخابئها القصية ، بعد أن كان قد تركها أهلها وأستناموا إلى حالة من الجهل والجمود .

جاء الإسلام فأنقذهم منها ، وفتح أمامهم باحات العلم الصحيح .. فكانت هذه الحركة داعية لقيام المدنية الحاضرة .

فتأمل فى حكمة هذا الدين ، كيف جعل العلم والحكمة سببا للإشراقات الروحية ، وهما — فى الواقع — سببها المباشر .. فدفع بأهله لتطلبها من السموات والأرض فكان لهم منها نصيب موفور فى سنين معدودة ..

انظر هذا وتذكر كم جر التأمل فى الكون ، والوقوف على بعض أسراره من صنوف العذاب ، وألوان الاضطهاد ، على الأمم التى وقعت تحت سلطان حفظة الإديان .. فكان نصيب المفكرين ، الموت على أفظع ضروبه ، إما احتراقا بالنار ، أو غرقا فى أليم ، أو ترديا من شاهق أو التمزق كل ممزق .

ليس هذا كل ما فى هذا الباب :

فإن الإسلام قد أكبر من شأن الوجود إلى حد أنه أقسم به وبكائناته الحية فى غير موطن ، فقال : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » و « لا » هنا ، زائدة .

فانظر كيف اقسم بمواقع النجوم ، ثم أردف ذلك بقوله « وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » .

وهذا من أحسن ضروب الإشادة بذكر الأجرام العلوية ومواقعها ، والحث على رصدها وضبط معالمها .

فان كل تال لهذه الآية يقول : ماذا عسى أن تكون مواقع النجوم التى يقسم بها الله ؟ ويكبر من شأنها إلى هذا الحد فتتساق العقول لرفع الستار عن هذا المستور ، لتدرك تلك العظمة التى ينوه الخالق نفسه بجلالها هذا التنويه .

لم يكتف الإسلام بسرد ما تشاهده العين من كائنات الوجود ، وحفز العقول لدراستها والتأمل فيها ، حتى تحقق لها القرب من بارئها عن طريقها .

ولكنه كاشف العقول بقوله :« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ» بأن فى الكون عوالم خفية ، لا تراها العين ، وأن هذه الكائنات جديرة بأن

يقسم بها مبدعها فى هذا اللون من الإكبار ، وقد أوجزها فى آية تفعل فى العقول فعل السحر .

ومازال الناس يظنون أن مالا يبصرونه هو عالم الروح ، وما فيه من صنوف الكائنات العلوية ، حتى جاءت العلوم الحديثة فكشفت لنا أن فيما لا نبصره عالما من الأحياء ، لا عدد لآحاده يتحكم فى صحتنا ومرضنا ، ويتسلط على أجسامنا وعقولنا . وهو عالم الميكروبات متى يكشفها المجهر ، والميكروبات المتناهية فى الصغر ولا يستطيع كشفها .

وقوى هائلة يمكن أن يستخدمها الإنسان فى أجل الاغراض وأسماها ، كالكهربائية والمغناطيسية ، وكالأشعة الكونية التى يعزى إليها الإبداع والإيجاد ، وغيرها من أنواع الأشعة المحيطة بنا من كل مكان ، بين البنفسجية وما وراء البنفسجية ، وأشعة « اكس » وإشعاعات المواد الأرضية كلها .

وما أسس على نظرية التيارات الأثيرية من الاتصالات اللاسلكية وغيرها ، مما حققته التجارب ، ويعتبر من أكبر وأجل ما وصل إليه الإنسان من أسرار الكون ، وأعظم موصل له إلى سواه مما لا نحس بوجوده اليوم بحاسة من حواسنا .

فالكون ، كما ترى ، أجل نصيب من الإسلام .

وفرق بين أن ينظر فيه الناظر إشباعا لشهوة عقلية ، وحبا فى كشف الأسرار .

وبين أن ينظر فيه باعتبار أنه مستقر القوانين المادية والروحية .

وباب الوصول إلى الحضرتين الصورية والمعنوية ، ومتنزل الإشراقات القدسية ، مما لا غنى للنفس والعقل عن التطلع إليه ، وبذل قصارى الهمم فى الاتصال به .

فرق شاسع بين هاتين النظرتين . .

وقد انفرد بالثانية المسلمون ، فحققوا تعمقا فى العلم والدين معا .

فكما كانوا أعلم علماء زمانهم بالكون المادى وكائناته ، وكانوا كذلك أقرب الناس من ملكوت الله وأمتعهم بأنواره ، فلم تختلط المدنية لديهم بالملاذ البدنية ، ولا بالإباحات الخلقية ، إلى حد أنها تهدد بالزوال والانتكاس إلى الوحشية كما هى اليوم .

وهل يتخيل المرء علما أجل أثرا ، وأينع ثمرا ، من علم يؤدى به إلى كمال الحياتين وغاية السعادتين ؟

ولاشك فى أن هذا الأسلوب القرآنى قد اتبع اليوم فعلا . فصارت نظريات الذين يتصدون لدراسة الكون ذات ناحيتين ، مادية وروحية .

فلا شىء يمنع بعد اليوم أن يصل المرء إلى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من الترقيات المادية والروحية .

ولا ريب فى أن القرآن هو أول من دعا إلى ذلك ، مصداقا لقوله تعالى :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

خط الدفاع الأخير

لقد أقمنا فى الفصول السابقة ، الأدلة القاطعة على أن الإسلام دين عام خالد ، وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم المرسلين ، وأن ما أتى به هو خاتمة الوحى الإلهى للبشر كافة .

فكان جملة ما كتبناه لخطوط دفاع عن هذه الحقائق ، لا يمكن اقتحامها ، مهما تذرع الخصم لذلك بالشبهات والأضاليل .

ولكنا رأينا ، ولم يبق إلا الخاتمة ، أن ننشىء خطاً دفاعياً وراء جميع هذه الخطوط ، نقتبسه كله من القرآن الكريم ، هو أقوى وأمنع منها مجتمعة ، لما فيه من روعة الكلام الإلهى وسلطانه على العقول ، فنقول . قال الله تعالى :

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » .

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

« هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » .

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

« وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ » .

« قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَىَّ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

« لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ ، لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ

يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) . الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

« إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

« فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ * وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً * وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » .

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » .

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُون الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُون مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » .

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي وَلاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » .

« قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » .

« قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ ؟ » .

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » .

« لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * (أى أصحاب العقول) .

« هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ *

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

« قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » .

« إِنَّهم أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

« وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ » (بكسر اللام) .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

« فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

« لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ * قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » .

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

« إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

« أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيداً * وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْراً » .

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ (أى فليمدد بحبل إلى السقف) ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (أى أن من يظن أن الله لا ينصر محمداً فليشنق نفسه يأساً لأنه ناصره حتماً) .

« كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

« سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » .

« مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ » .

« لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » .

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » .

« وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا ، إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (أى : ولا تحملكم عداوتكم لقوم على ظلمهم) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

« وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » .

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » .

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » .

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ، خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى » .

« وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ » .

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » .

« لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

« مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » .

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

« أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

الخاتمة

رأى القارىء من كل ماكتبناه فى هذا الكتاب ، أن الإسلام بحق وبكل دليل دين عام خالد ، وقد تذرع بكل الأصول العليا التى تحله هذه المكانة عند الآحاد والجماعات .

فقد دعا إلى الوحدة الإنسانية العامة ، ومحق ماكان بين الشعوب من فوارق القوميات ، وأوهام الطبقات الاجتماعية ، وقرر أن أصل الأديان واحد ، وأن الخلافات التى يشاهدونها بينها إنما سببها بغى قادتها ، فهم الذين خلقوها لمصلحتهم الذاتية .

ولذلك تركهم جانبا ووجه دعوته إلى الناس كافة ، لا إلى الآحاد الممتازين منهم ، ولا إلى الجماعات التى تتصدر للنيابة عنهم .

وعدم التقليد من أساسه وطالب : كل معتقد بالبرهان ، وأعلن أن إيمان المقلد غير مقبول ، ونادى بسلطان العقل .

ووجه العقول إلى النظر فى الطبيعة وفى كائناتها ، وحضها على تعرف السنن الاجتماعية بدراسة أحوال الأمم ، وتتبع تطوراتها فى العصور المختلفة ، مصرحا بأن للاجتماع سننا لا تقبل التبدل ولا التحول .

وحض على طلب العلم والحكمة من أقصى مظانهما .

وشدد فى ذلك على الجنسين ، حتى جعله عليهما فرضا .

وربط فهم الدين بهما ، فقال تعالى : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ » بكسر اللام .

ثم توسع فى الإشادة بالعلم إلى أقصى مايتخيله العقل .

وأتى بذلك فى ألوان هى أقصى مايسمح به الإبداع الكتابى فى عشرات من الآيات .

فقال تعالى : « وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » ، وقال : « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وقال : « وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

وقال : « وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ » .

وقال : « وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ » .

وقال : « إِئْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » .

وقال : « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » وقال : « إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ » بكسر اللام . وقال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » .

وقد سمى أهل الجاهلية بالذين لايعلمون ، فما هذا كله ؟

والله لو كان محمد صلى الله عليه وسلم تخرج فى « أكسفورد » أو « السوربون » أو جامعة « برلين » ، لما جاء كتابه بأكثر من هذا فى الدعوة إلى العلم .

فما ظنك وقد كان فى أبعد الامم عن معاهده ، وأشدها جهلا بأصوله وفروعه .

فما سر هذا الأمر الجلل ، وماذا أريد منه ؟ .

سر هذا الأمر أن هذا الدين خاتم الوحى الإلهى .

وما كان كذلك وجب أن يزود بكل مايوجه العقول ، ويستهوى الأذهان ، ويعلو على كل مذهب يتصدر للزعامة فى الأرض .

وقد علم موحيه أن سيكون زمان يعترك فيه الدين والعلم ، ويظهر الثانى على الأول بسمو أصوله ، ودقة أسلوبه .

فجعل دينه الأخير أجمع لهذه الأصول وأرعى لهذا الأسلوب من أبعد المذاهب العلمية شأوا فى هذا الباب .

هذا مظهر غريب من مظاهر مناعة هذا الدين ، وصلاحيته لجميع الأزمان ، ولم يبق بينه وبين أن يعيد أنه دين الإنسانية العام إلا أن يفهمه الناس على هذا الوجه .

لو كان مانقوله مأخوذا من القرآن استنتاجاً ، أو من طريق التأويل ، لهان الخطب على خصمه ، ولكنه مقرر فيه بالنص ، ومكرر فى ألوان شتى إلى حد الإفراط وليس هو بأفراط .

ولكنه إشباع لموضوع ، سيكون فى يوم من الايام ، محك النظر بين الناس .

أن هذا الأمر من العجب ، بحيث لو عرضته على أحد من المفكرين ، من غير المسلمين ، لانكره أشد الإنكار ، لأنه يراه قد جاء سابقاً لاوانه بأكثر من ألف سنة ، وهو محال فى نظره .

وإذا ثبت له أنه موجود فى القرآن بنصوص لا تحتمل التأويل ، ومكرر فى ألوان شتى من البيان ، لكان هذا وحده أدل دليل فى نظره على حقيقة الإسلام . وعلى أنه يتضمن كل ما يتخيله العقل من المؤهلات ، لأن يكون ديناً عاما خالدا .

فهل بالغ الكاتب الإنجليزى الكبير « برناردشو » فى قوله : إن العالم كله سيصبح مسلماً ؟ لا أنه لم يبالغ .

ومن العجيب أن القرآن نفسه قد أنبأ بهذا عينه فقال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

وقال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

كان أحد أصحابى يتحدث إلىَّ وأنا سائر معه فى أمر هذه المقالات التى نشرتها فى جريدة الجهاد ، ويذهب إلى أنها قد بلغت مدى بعيدا فى التدليل على صحة الإسلام وسلامة أصوله من الضعف .

ثم قال : ولكن هب — بعد هذا كله — أن يقول لك قائل : إنه لا يعتقد برسالة محمد ، ويرى أنه هو الذى وضع القرآن ، فماذا يقال له ؟

قلت : قل له : إذن فقد وضعت محمدا فوق مكانات الأنبياء ،فإن عربيا يولد يتيما فى بيئة أمية ، ليس فيها أثارة من علم ولا عهد لها بدعوة ، ولا أثر لحركة فكرية ترمى إلى غاية اجتماعية ، وفى جو مشحون بأخبار الغارات والثارات ، يضع كتابا يشحنه بأصول لم يحلم بها الفلاسفة الأقدمون ويملوءه بمبادىء لم تتولد فى هذه القرون الأخيرة إلا عقب تطورات اجتماعية وانقلابات فكرية ،لاتدخل تحت حصره ،ويغرس أعلاما واضحة لشريعة تمثل فيها الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات لم تتطلع إليها شريعة ولا فى القرن العشرين، ويقرر للعقل والعلم أسلوبا يبز ماوضعه أساطين الفلسفة ، وعباقرة العلم ، إلى هذا العهد الأخير . .

قلنا إن عربيا فى تلك البيئة ، لو كان هو نفسه واضع ذلك كله ، لكان مخلوقا قد منحه الخالق قوى فوق قوى البشر ، وعقلا أعلى من عقولهم ، تتحتم دراسة نفسيته على الناس ، ويكون نتيجة ذلك أن يعتبر آية من آيات الله فى الأرض .

نعم . . إن الرجل قد يسبق الزمان الذى يولد فيه فى الأصل أو الأصلين،أما سبقه الكافة فى مجموع من الأصول هو أخص مايقوم عليه البشر من أمرى الدنيا والدين،ويأتى من كل ذلك بالنهايات القصوى،ثم هو مع هذا التفوق المحير للعقول ينكر على نفسه كل فضل فى وضعها ،ويعمل على تكوين جماعة تقول بها،وتجرى على سنتها ، وينجح فى ذلك كله نجاحا مدهشا تحقيقا لوعده فى قوله تعالى :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الْأَرْضِ » .

فتصبح هذه الأمة بيئة العلم والحكمة والسلطان ، وزعيمة للأمم كافة فيها ، مدى قرون طويلة ، فتحقيق هذا كله من المحالات العقلية .

فإن ثبت أن رجلا قام به ، فيكون ذلك الرجل هو الذى يحلم به « نيتشه » ويدعوه بالسوبرمان .

رد على ذلك ، أن هذا الرجل على خلاف جميع المصلحين ، قد قام فى أمة

لاتوانى مطامحه فى الاجتماع لتغلغلها فى الفرقة، ولا فى التعقل،لتوغلها فى الجاهلية، ولا فى التفكير والنظر لعراقتها فى الأمية .

ولم تكن قد تطورت إلى حد أن تلين فى يده ، وتستنيم إلى مذهبه .

ومع كل هذا رأيناه يقول : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قوى عَزِيزٌ » .

ويقول مجيباً على تهديدهم : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » .

أعان الإسلام عن نفسه أنه خاتمة الوحى الإلهى ، وأنه الدين العام الخالد ، فوجه خطابه إلى البشرية كلها ، ولم يوجهها لأمة بعينها مرة واحدة وصرح بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين .

وهذه كلها دعاوى ليس فيها شىء من الغرابة ، فقد يتفق أن يقولها كل من تحدثه نفسه بها .

ولكن العجب العاجب أن تطابق هذه الدعاوى الواقع ؟

فلم يقع لداع بعد محمد مدعيا النبوة ، إلا تكشف أمره عن جنون يستحق عليه الرحمة .

ولم يعرض على العالم كتاب تحت عنوان وحى سماوى بعد القرآن إلا اتضح أمره عن أفك مبين .

لم يبق إلا دعوى أن الإسلام دين عام، يصلح لكل جماعة فى كل زمان ومكان. رأيت كيف أنه أقام الحجج على ذلك ، بفيض من الأصول لاتبقى فى نفس أى متعنت حاجة إلى المزيد .

وتسمح لكاتب مثلى فى القرن العشرين أن يستخدم كل أسلحة الثقافة العصرية فى سبيل تأييدها ، وينجح فى ذلك إلى حد بعيد .

هذا عجيب إلى أقصى ما يبلغه الخيال من معنى هذه الكلمة .

وأعجب منه المناعة التى تحلى بها الإسلام ، لتقيه شر التحجر الذى تمنى به

التعاليم الدينية من وقوفها فى حيز محدود . مع تقدم العلوم فى مدى العصور ، وتطور العقول بتوالى الإنقلابات .

وهذه المناعة فيه تقوم على خمسة أركان :

أولا : جعل العقل والعلم، السلطان المطلق، والحكم الفصل، حتى ولو عارضا نصوص الكتاب .. فجعل فى تأويلها سبيلا لماشات التطورات العلمية والفكرية.

ثانياً . حصن طالب العلم، وجعله إياه سبيلا للرقى الروحانى، كما هو سبيل للرقى المادى ، ليقطع على الجامدين كل أمل فى التحكم بالدين ، على صد الحركة العلمية .

لذلك كان المسلمون الاولون أسبق الامم إلى كل علم، وأسرعهم إلى كل جديد متأولين كل ما يعترضهم من الكتاب .

ثالثاً : لم يحصر الفهم فى الدين فى جيل من الناس ، ولا قصره على طائفة معينة منهم ، ولكنه فتح باب الظن والتجديد فيه للكافة على مصراعيه فى كل زمان ومكان .

رابعاً : فرض سنة التجديد فى الدين نفسه ، فقد علم أن لكل زمان مناهج للفهم ، ووجهات للتفكير ، ومسلمات أومرجحات خاصة، فإذا لم تتجدد الفلسفة الدينية وتطبق على الحاجات الجديدة بلسان أهل كل عصر ، وتشمل عناصر ثقافتهم جمدت حيث هى ، وتركها الناس ومضوا مع العلم ، لا يلوون على شىء فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يرسل على كل مائة من يجدد لهذه الامة أمر دينها » .

خامساً : جسم مادة القيل والقال فى الكتاب ، وحماه من الخبط والخوض فيه ، والذهاب فى تأويل آياته كل مذهب .

وكتب الوحى لا تخلو من الإشارات إلى عالم الروح والكائنات الخفية ، وإلى الحياة الآخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، وإلى التنويه بحوادث ماضية وأساطير قديمة امتزجت بعقول المتقدمين ، وصارت عنصرا من عناصر شخصياتهم.

وكل هذه الامور تقبل الاخذ والرد ، ويجد فيها الخصوم ذريعة لجعل الكتاب عرضة للنقد .

بل ربما حمات الكثيرين على الحكم عليه بمخالفته للعلوم ومناقضته للتاريخ، وخروجه عن دائرة المعقول .

فجاء الإسلام بما يحسم هذه المادة حسما ، فأمر الله فى نص صريح بعدم الخوض فيها أو محاولة تأويلها مصرحا بأنها لا تقبله بحال ؛ وإنه لا يحاول ذلك فيها إلا فاسد العقيدة ، فقال تعالى :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا. وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

فهذه الأركان الخمسة التى تقوم علينا مناعة الإسلام ، تكفى أن تحميه شر كل ما يتصور من المحالات وعوامل الهدم ، وهى تدل على الهيبة هذا الكتاب ، وأنه وضع ليبقى ما بقى الإنسان ، مصونا من كل تصدع .

فإذا طمع طامع بعد هذا فى هدم هذا الدين والتشكيك فيه ، ليأت — إن استطاع — بأسلحة جديدة .

أما كل ما عهده الناس لخصوم الإسلام من الأسلحة المعروفة ، فقد تحطمت وأصبحت هباء تذروه الرياح ، وبقى الإسلام سليما من كل شبهة ، وسيبقى كذلك ، مادامت الأرض والسماء .

أَفَلَتْ شُمُوسُ الْأَوَّلِينَ وَشَمْسُنَا   أَبَدًا عَلَى أُفُقِ الْعُلاَ لاَ تَغْرُبُ

الفصل الخامس

دفع شبهات عن الإسلام

* هل كان محمد عصبي المزاج ؟
* هل كان محمد يتصنع الوحى ؟
* هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟
* هل الاسلام دين حربي محض ؟
* ألم يثبت الاسلام أنه دين ترق ؟

شبهات واتهامات

تدور الشبهات والاتهامات التى يوجهها بعض الأجانب المغرضين للإسلام ـ حول ثمانى مسائل . وقد تناولها مؤلف كتاب نشر بعنوان «مسائل فى الدين» .

أولا : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أولى به أن يعتبر مريضاً عصبى المزاج .

ثانياً : أنه فى أواخر أيامه كان يلجأ إلى التصنع ، فيدعى أنه يرى من المشاهد الروحانية ما يتفق وحاجاته المادية .

ثالثاً : أنه كان يعمد إلى القسوة والغدر ، فى سبيل إصابة مراميه القومية والدينية .

رابعاً : أن الدين الإسلامى حربى ، تعوزه وداعة المسيحية ورقتها .

خامساً : أنه لم يثبت أن الإسلام دين ترق ،

سادساً : أنه يجيز الرق وتعدد الزوجات ، ويسهل على الزوج الطلاق ، وأن ما تعانيه المرأة اليوم من حالتها السيئة ، سببه غيرة النبى المتطرفة .

سابعاً : أن إكثار النبى من الحث على الصدقة يرجع إلى ماقاساه فى طفولته من الحرمان واليتم . وهذا أيضاً علة كثرة المتسولين ، حيثما تدرس تعاليمه .

ثامناً : أن القرآن مشحون بأخبار المشاهدات الروحانية البعيدة عن العقل ، وأنه يعوزه البيان الساحر والترتيب الضرورى . وهذا من أعظم علل الإملال والارتباك التى لهذا الكتاب ، مما جعله غذاء عقيما لذويه .

هل كان محمد عصبي المزاج ؟

أجمع المؤرخون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث قبل النبوة أربعين سنة يشتغل بجسمه وعقله لكسب القوت .

فعمل أولا فى الرعى ، ثم فى التجارة ، وقد سافر فى سبيلها إلى الشام .

فقام بهذين العملين على أكمل الوجوه ، حتى إن السيدة التى كان يعمل فى تجارتها أرتضته زوجا لها لما رأت من أمانته ، وما آنسته من التوفيق الذى صادفه .

وقد ورد فى التاريخ ، زيادة على هذا ، أنه كان من القوة الجسدية فوق الحالة العادية ، حتى قالوا إنه صارع « ركانة » فى الجاهلية وصرعه .

وقد كان « ركانة » هذا من أصلب الناس عوداً وأشدهم بأسا .

وقد فطر الناس على تتبع أحوال المشهورين ، واعتبرت سيرة النبي - على وجه خاص - من أولى الأمور بالتمحيص والدراسة .

فلم ينقل عن أحد ممن تصدى لهذا الأمر أنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أولى به أن يعتبر مريضاً .

وبل قالوا : إنه كان يتمتع بصحة كاملة ، وأن كل مايروى عن لون بشرته وامتلاء بدنه ، يدل على ذلك أصرح دلالة .

وقد روى عنه أنه كان يقود المعارك ، ويقارع صناديد الجاهلية ، والمريض لا يستطيع ذلك بوجه من الوجوه

أما إنه كان عصبي المزاج ، فمراد أصحاب هذا الاتهام أنه كان من أولئك النورستانيين[1] الذين فقدوا التوازن الحيوى ، فصاروا عالما وحدهم ، بين المرضى والأصحاء .

وهذا مالا يمكن التسليم به ، لأن هذه الحالة العصبية لاتنتاب إلا من يعملون وهم جلوس .

ولذلك قرر الأطباء أن « النوراستانيا » لاوجود لها بين الجماعات التى تعيش فى قبائل ، وأنها من ثمرات المدنية لتوالى التأثيرات حتى تجعل صاحبها من اضطراب الجسم والعقل فى حالة كرب وبأس ، وتشاؤم لا حد لها .

---

(١) Neurostheniques

فمن أين تنتاب محمداً مثل هذه الحالة ، وقد كان كثير الحركة ، يعمل بجسده لكسب قوته إلى أن بلغ الأربعين من عمره ؟ .

ولو كان على شيء من هذا ، خلافاً لمقررات علم الطب ، لبلغنا عنه الشيء الجم ، لكثرة المتتبعين لأحواله .

ويظهر من سياق الكتب التى وردفيها مثل هذا الإتهام أن الحالة كانت تمثل مالا حقيقة له من المشاهد الروحانية . كما هو حال بعض المرضى من ذوى الأمزجة العصبية .

ولكن فات مؤلفى هذه الكتب أن مثل هؤلاء المرضى ، لاتصدر منهم إلا أعمال مشوشة مضطربة .

والمعروف طبياً أنهم لا يتعرضون لتحمل أعباء الأعمال التى لا بد منها لكسب قوتهم ، وأكثرهم يصبحون عالة على ذويهم .

فإن تعرض بعضهم لها على كره منه ، أوقع اللوث والاضطراب فيها ، ولم يحسنها على أى وجه كان .

والذى شوهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم دفع بنفسه للدعوة إلى دين فى وسط أمة برمتها ، وحيداً أعزل ، لا حول له ولا حيلة .

وقد تذرع بكل مايتذرع به الرجل القوى ، ذو إرادة الحديدية ، لبلوغ غايته .

وما زال بهذا الأمر الجلل يتحمل أعباءه وتكاليفه ، حتى جاء دور الاحتكام إلى الأسلحة .

فقاد الأمور فى هذا الدور أحسن قيادة ، وخاض بنفسه المعارك ، وأبلى فيها البلاء الذى ليس بعده غاية ، حتى لم تحفظ عليه فرة واحدة ، وقد حفظت على أعظم فرسان الجاهلية .

فإذا كان هذا كله يصدر من رجل مريض ، ذى مزاج عصبى ، فهو مخالف لسنن الطبيعة ، ويقوم بدحضه كل شيء فى عالم التجارب الحيوية والتعرض لصادمة الواقع المحسوس إلى هذا الحد من مؤلف ، لايكسب ذويه غير الإشتهار بعدم التحميص فى المسائل التاريخية ، وهى تهمة لو لصقت بهم ، أفقدتهم أثمن ما يتسلح به خصم شريف فى ميدان دينى ، يجب أن يحاط بجميع الخلال الشريفة والصفات الكريمة .

هل كان محمد يتصنع الوحى ؟

المسألة الثانية أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتصنع فى آخر سنى حياته الوحى لتحقيق أغراضه .

وهذه عبارة لا يستقيم لها معنى بذاتها ، إلا إذا ضم إليها شرح من العارفين بخصوم هذا النبى الكريم .

لأنه يمكن أن يقال إذا كان محمد تصنع الوحى فى أواخر أيامه ، فهل كان صادقا فى إدعائه الوحى فى أوائل حياته ؟ كيف نعقل مثل هذه الحالة ؟

لا تعقل إلا إذا كان موجه مثل هذا الاتهام ، يرى رأى القائلين بأن محمداً لم يكن فى أوائل أيامه كاذباً فيما يدعيه من رؤية الملك ، ومن سماعه أقواله ، ومن شعوره بالوحى الباطن .

لأنه كان - فى زعمهم - مريضاً عصبى المزاج مصاباً « بالهستيريا » فيرى ويسمع مالا حقيقة له ويحسبه حقائق ، ويصبغه بصبغة العقائد التى تملأ قلبه ؛ والصور التى تشغل عقله .

ولكنه فى آخر أدواره ، خفت وطأة « الهستيريا » عنده ، فكان يستر عجزه بالتكلف ؛ فيدعى أنه أوحى إليه ، ولم يوح إليه رامياً إليه بذلك إلى تحقيق أحلامه الإجتماعية والدينية .

هذه مزاعم الناظرين فى سيرة محمد وأعماله ، ممن لا يصدقون بإمكان اتصال إنسان بالعالم العلوى ، بل ولا يعتقدون أن هنالك عالماً علوياً .

فقد كبر عليهم أن يوصموه فى أول حياته بالتضليل والتدجيل ، وقد تحمل فى سبيل دعوته مما يتحمله المتكلفون ، ونفى مالا يصبر عليه المصنعون .

ولكن ما عذر أصحاب هذا الاتهام والغالبية منهم ، يعتقدون بالوحى ، ولا يضنون به على رجال كثيرين ممن لم يعملوا جزءاً من ألف ، مما عمله خاتم النبيين ، ولا

أثر لهم بجانب آثاره التي غيرت وجه المعمورة من حال إلى حال في سنين معدودة؟

لقد ذكرنا شبهة الهستيريا ، فلا يصح لنا أن نترك أكثر القراء يتساءلون عن ماهية هذا الداء ، وعن كنه الخيالات والضلالات الحسية والمعنوية التي يولدها للمصاب به ، وعن مكان هذه الشبهة من سيرة رسول الدين العالمي الأخير .

« الهستيريا » كما يصفها الأساتذة الأعلام « كريكية » ن « لا ندوزى » و « شاركو » داء عصبي عضال ، أكثر ما يعترى النساء .

وهو وراثي ، صفاته المميزة شذوذ خلق حاد ، وحساسية متطرفة تصل إلى حدود غير معقولة .

ثم يزداد المرض حدة فيشعر المصاب به بالاختناق ، ويضيق في الصدر عظيم وبخفقان مزعج وارتعاش ، وباضطرابات خطيرة في الهضم ، وقد يصحب هذه الأعراض شلل في بعض الأعضاء .

فإذا تابع هذا المرض تقدمه ، جاء دور التشنج ، فيسبقه بكاء وعويل وكرب عظيم وهذيان ينتهي بالإغماء .

فإن تجاوز هذه الدرجة ، دخل في دور أشد خطورة ، من كل ما مر .

فيرى المريض أشباحا تهدده ، أو تسخر منه ، أو تزعجه ، ويسمع أصواتاً لا وجود لها في حس غيره .

ومن أخص مميزات هذا الدور ، شعور المصاب بكرة تأخذ بمخنقه ، فلا يزال يضطرب منها حتى تفقده الحس تماماً ، فيقع في الإغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه ، وقفز من مكان إلى مكان على صورة تثير الذعر في قلب كل من يراه ، فلا يجد لإنقاذه حيلة ، غير الصبر ، حتى تزول عنه يسيراً يسيراً لتعاد الكرة عليه بعد حين .

فهل كان للنبي صلى الله عليه وسلم هستيريا تنتابه هذه الأعراض ؟

لو كان كذلك ، لوجب وضعه في أقصى درجات هذا المرض ، لأنه كان يرى شبحا يظنه ملكا ، ويسمع صوتاً يتخيله وحياً .

وهذه الأمور من مميزات الدور الأخير لهذا الداء ، حين يتفاقم أمره وتشتد وطأته ويعز شفاؤه .

ومتى بلغ المصاب هـذا الدور ، أصبح هدفاً لجميع أعراضه ، من أول شذوذ الأخلاق والحساسية المتطرفة والخفقان المزعج والبكاء والنشيج والهذيان « أى الهلوسة » ، إلى التخبط باليدين والرجلين ، والقفز بالجسم كله من مكان إلى مكان

فهل نقل عن خاتم المرسلين شيء من هذه الأعراض ، على كثرة الذين تتبعوا حياته وتعقبوا أعماله ؟ .

وهل عهد فى تاريخ العالم أن مريضاً بمثل هذا الداء ، الذى أعجز الطب قديماً وحديثاً ، ينتدب نفسه لتطهير أمة برمتها من أرجاس الوثنية ، وتوحيد كلمتها ، وجمع متفرقها ، وإيتائها بدستور ينظم شئونها ، ويسدد خطواتها ، وينقلها من طورها المتحجر الذى كانت فيه إلى أطوار متعاقبة ، تندفع فيها اندفاعا طبيعياً مرتبا على موجب النواميس الاجتماعية ، حتى تصل بعد ثمانين سنة إلى درجة دولة لا تغرب الشمس عن أملاكها ، هى أكبر دولة عرفها تاريخ البشر إلى اليوم ؟

إذا كان محمد ـ وهو هستيرى مريض فى رأيهم ـ يوفق إلى مثل هذه الأمور الجسام ، حتى يغير سطح المعمورة من حال إلى حال ، مما لم تأت بمثله أقيال الفاتحين ولا كبار الملوك والسلاطين ، بل ولا أولو العزم من المرسلين ، فماذا كان صانعاً لو كان رسولا حقاً ، يرى الملك ويسمع منه الوحى ؟ .

ولو كان هذا حال رجل خيالى مريض شاذ الأخلاق ، وعرضة لجميع الأعراض التى ذكرناها — من أى مصنف الذى إذا رأيته رحمته واستعذت بالله .

فماذا بقى للصادقين الكاملين ، وللأصحاء العاملين ، من الذين إذا رأيتهم افتخرت أن تكون واحداً من أشياعهم ؟ .

هل عهد أحد فى تاريخ الإنسانية أن المرضى المتهوسين يصلحون لقيادة أنفسهم ، فضلا عن التصدى لقيادة الأمم والبلوغ بها إلى أوج لم تصل إليه أمة قبلها ولا بعدها ؟.

هب أن الهذيان يؤدى بالمصاب بالهستيريا إلى التصدى لمثل هذه الخطة .

فهل يكون حاله فى الدعوة إليها أمثل من حال المجنون يضحك من يسمعه يهذى بها ، ويستدعى غيره ليشاركه فى التلهى بما يقول ؟ .

هل بلغت أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوة محمد صلى عليه الله وسلم واتخذوهاهزوا ولعبا . أم قابلوه بالاضطهاد، وصبوا على اتباعه ألوان العذاب حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين ، ثم إلى المدينة . . وهناك شنوا عليهم الغارات الشعواء، وتألبوا عليهم ، ولم يتركوا وسيلة إلا استخدموها لحل جماعتهم، ثم انتهى أمرهم بالخضوع للنبي خضوعا لاحد له ؟ .

لا يستطيع أعداء محمد مهما تنطعوا فى تصيد الشبهات وتدبيرها من مختلف الأعاليل ، أن ينالوا من شخصيته الفذة .

فإن ما أثمرته من الثمرات مما لم يتسن مثله لمصلح بل ولا لرسول قبله، تدحض كل فرية تلفق للحط من قدرها ، وتبنى لصاحبها صرحاً من المجد جديداً ، وتوحى إلى الذامّين عن كرامته أدلة تجعل ما لفقه خصومه ، هشيما تذروه الرياح .

هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟

من متممات رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، تأسيس دولة إسلامية تحدث فى العالم انقلابا هو فى حاجة إليه ، لبعث الأمم من سباتها الذى كانت وقعت فيه لأسباب مختلفة .

ومؤسسو الدول لامفر لهم من الاعتماد على القوة فى قمع من يثور من الأفراد وقهر من يقف فى سبيلهم من الجماعات .

وهذه الخطة قد تصطبغ بصبغة القسوة ، ويشتبه فى بعض أمورها بالغدر . .

فيسهل على كل مرجف أن يصم كل قائد ومؤسس مملكة بهذين الوصفين ، وقد يجد مايستدل به عليهما ولو تعسفا . .

ولكن المدار على مايدونه التاريخ الصحيح فى صحيفة كل عامل يستحق أن يشغل مكانا فيه .

وقد كلف الناس بنقد سير السلاطين والقادة ، والذهاب فى المغالاة بصغريات أعمالهم وكبرياتها كل مذهب .

وقد حرص كثير من الفاتحين ومؤسسى الدول على أن يعرفوا بالقوة ، وشدة الوطأة ، ليلقوا الرعب فى قلوب الشعوب ، ويكون اسمهم مقرونا بالشر المستطير . ومنهم من كان يباهى بذلك على رءوس الأشهاد . فكان « أتيلا » ملك الهونيين ، مخرب ملك الرومانيين ، يزهو بنفسه قائلا : إن العشب الأخضر لاينبت حيث يطأ جواده !

وقد حفظ التاريخ لكبارهم من حوادث القسوة والغدر وغلظ الأكباد ، مالا يكاد يصدقه العقل .

فقد غزا « بختنصر » بيت المقدس ، وأحرق كل ماوصلت إليه يده فيه ولم يحترم المعابد والهياكل ، وأعمل السيف فى أهلها ، ثم اقتاد معه من بقى من اليهود فمزق شملهم فى الأرض كل ممزق .

وكان الفاتح المغولى « تيمورلنك » يدخل المدينة فلايبقى فيها على نسمة . وقد

قام أهل إحدى المدن بمقابلته بألوف من أطفالهم حاملين المصاحف ، استنزالا لعطفه . فلما شارفهم أمر بعض جنوده بأخذها من أيديهم ، ثم أوعز لفرقة من خيالته أن يوطئوهم بسنابك الخيل ، ففعلوا ، وقتلتهم على تلك الصورة .

وكثيراً ماكان يقيم مآذن فى البلاد التى يفتحها من جماجم قتلاه ، أو يبنى أسراه وهم أحياء فى أسوار المدن كأنهم بعض الأحجار !.

هذا غيض من فيض ، من سير كبار الفاتحين ، ومؤسسى الدول . .

أما ماروى عن القادة المتمدنين ـ على تورعهم من أعمال القسوة ، وتوقيهم من سوء القالة ـ فلا يمكن حصره ، ولانضرب لك الأمثال تفاديا من جرح عواطف الأمم .

* * *

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم عن جميع القادة والفاتحين ومؤسسى الممالك باقتران اسمه بالرحمة فى نص لا يحتمل تأويلا فقط قال الله تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » وقال : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » وقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وقد نحله الله من صفاته صفتين لم ينحلهما بشرا قبله ولا بعده ، فوصفه بأنه رءوف رحيم .

وقد أكثر هو نفسه من نشر خصلة الرحمة فى أشياعه ، فكان يكثر من قوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن . . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقال : « إن الله رفيق يحب الرفق » .

وقال « أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة؟ كل هين لين سهل قريب » .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم بالرفق والرحمة فى جميع مواقفه الخاصة والعامة مافاً فى بيته ، فقد كان من الوداعة والرفق بحيث لم يؤنب خادماً قط على إهمال.

قال أنس بن مالك : خدمت رسول الله ثمانى سنين، فما قال لى قط لشىء عملته لم عملته ، ولا لشىء تركته لم تركته .

ومن آيات رحمته ورقة قلبه ، أنه كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى ، فيسرع فى صلاته ليرى ماذا يؤذيه .

وقد امتدت رحمته على مخالفيه فى الدين مع إصرارهم على مخالفتهم فقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » .

وقد شملت رحمته الحيوانات العجم ، فقال « اركبوها صالحة واعتملوها صالحة واذبحوها صالحة » ـ أى غير مريضة ولا هزيلة

فكان بهذا الحديث ، أسبق الناس بمئات من السنين إلى تقرير المراقبات الصحية على الحيوانات المعدة للركوب وحمل الأثقال والذبح ، وإلى تأسيس جمعيات الرفق بالحيوان .

وقد شدد فى النهى عن عدم الاكتراث بأحوال الحيوانات فقال : « لا تتخذوا ظهور دوابكم مجالس »

أى لا تمضوا مدة فى الحديث وأنتم تمتطون صهواتها لا تبالون بتعبها .

وأشد من هذا فى الرحمة بالحيوان قوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » أى من حشراتها » . وهذا أبلغ ما سمع من مصلح فى وجوب حفظ حقوق الحيوان والإحسان فى معاملته

أما فى حياته العامة ، وقيادته للجنود ، ومزاحفته للعدو ، فقد كان مثالا للرحمة والرفق فإنه سن للحروب سنناً لم تكن معروفة من قبله .

فأوجب إعلانهم الحرب ، وحرم على جيوشه أن تتبع المهزومين ، وأن تجهز على المجروحين ، وأن تقتل طفلا أو امرأة أو واحداً من رجال الدين ، او متعبداً فى صومعة ، أو شيخا فانياً .

وشدد عليهم النكير أن يحرقوا شجراً ، أو يهدموا بناء ، أو يسيئوا إلى أسير . بل أمرهم ان يكرموا أسراهم فقال : « استوصوا بأسراكم خيراً » .
فكان الرجل يكتفى فى غذائه بالتمر ويخص أسيره بالخبز .

وكان يحفظ العهود ويراعى شرائطها ، ويأمر رجاله أن يفعلوا مثل فعله ، ائتماراً بقول الكتاب :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » . وقوله فى صفة المؤمنين : « وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » .

فلم يعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم قسوة ولا غدر فى سلم ولا حرب . ولو كان قاسيا غداراً ، الخالف بفعله صريح الكتاب ، من النهى عن العدوان ، والأمر باتباع العدل فى قوله تعالى :

« وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وقوله : « وَلاَ يَجْرِ مَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .

أى ولا تحملكم كراهتكم لقوم على أن تعدلوا فى معاملتهم .

أما كراهته لإراقة الدماء بغير حق ، فما تضرب به الأمثال .

فإنه طلب إليه إزالة وثنية منحطة كانت ناشبة أظفارها فى شعب برمته ، فظل جامداً متحجراً آماد طويلة كانت انتهت إلى حالة من الخسة والإباحة لا تطاق وهذه خطة يعجز عنها كل مصلح .

فأستخدم أولا الدعوة السليمة حتى ألف دولة .

ثم عمل على الإجبار ، والإجبار مشروع فى كل ملة لإزالة الوثنية حتى فى المسيحية نفسها .

فقد حمل الامبراطور قسطنطين الرومانيين على التنصر بالحديد والنار ، واستخدمت الكنيسة القوة ضد شعوب كثيرة إلى أن باد بعضها .

فلم يكن دين محمد بدعا من الأديان فى هذا الباب ، إلا أنه أحاطه من ضروب القيود بما يتم على عراقته فى الرحمة ، وعلى أنه خلق مثالا لكل عمل إنسانى تقوم به الأجيال التى تأتى بعده .

وقد رأيت الشرائط الحربية التي ذكرناها ، وزادها تأكيداً بوجوب احترام حياة من يقبل الإسلام ، ولو هربا من القتل . فقد قتل بعض أصحابه من نطق بالشهادة ، والسيف يهوى على رأسه ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك وتبرأ إلى الله من عمل صاحبه .

فقال له: يا رسول الله ، إنهم يفعلون ذلك تظاهراً ليتقوا القتل حين لا مناص منه ، ثم يعودون إلى قتالنا .

فقال له : « قد يكون ذلك ، ولكنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر » . ولا تظن أن قائد جيش ، أو متصدياً لتأسيس مملكة ، يتورع عن سفك مثل هذه الدماء .

* * *

هل الإسلام دين حربي محض ؟

إذا قيل: إن الإسلام فرض على رسوله والمؤمنين الأولين الحرب للدفاع عن أنفسهم ، وإزالة الوثنية من جزيرة العرب، وإنه — لكونه ديناً عمليا يساير سنن الوجود وتطورات الإنسانية — أباح لذويه الحرب إذا دعت إليها ضرورة الاجتماع ، وهي لاتزال داعية إليها ، فهذا صحيح ، ليس عليه منه ذام ، وأشهر الأديان العالمية تشاطره هذه الصفة وتزيد عليه فيها شدة بنسبة تقدمها في الظهور.

فاليهودية فرضت على أهلها الحرب ، حفظا لوجودهم ، وللتمكن في الأرض، والتبسط والفتح .

والمسيحية اضطرت في القرن الرابع — أي بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الأمبراطور قسطنطين الرمانية — أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار .

ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية ، جعلت الحرب من وسائلها ، فاتخذت الجيوش والأساطيل ، وتوسعت في ذلك إلى أبعد حد .

وهل يغيب عن ذاكرة أحد ، ماقرأه في التاريخ عن الحروب المسماة بالصليبية التي أعلنتها المسيحية على الإسلام ، للاستيلاء على بيت المقدس ؟ .

أما كان رجالها يطوفون البلاد ، يدعون الناس للحرب المقدسة ، فأوقدوها ناراً تلظى ، بقيت نحو قرنين ؟ ، كانت فيها مئات الألوف من الكماة المغاوير من هنا وهناك ؟ !

وقد وردت في الكتب المقدسة السابقة على القرآن ، أوامر تعتبر غاية في التشديد تطالب بقهر الوثنيين وإبادتهم .

جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا أدخلك ربك في أرض لا تملكها ، وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً » .

وكذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها بني إسرائيل دون أهلها الأصليين . .

فالإسلام لم ينفرد — كما رأيت — بأنه دين حربي بالمعنى الذى ذكرناه .
ولكنه انفرد — كعادته — بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلى آخر حد يمكن الوصول إليه بدون إخلال بسلامة الحوزة .

فوضع للحرب حدوداً ، وشرط على الغزاة شروطاً ، كلها ترمى إلى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الإنسانية .

ولم يهمل — مع هذا — أن يشير على ذويه بأنه يجىء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية عندما تصل الإنسانية إلى درجة من الرقى تسمح للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، تفززا من اللجوء إلى إزهاق الأرواح البشرية .

فأمر ذويه بالدخول فى التطور الجديد ، واحترام رأى العالم فيه فقال :

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » .

ولا دليل على ما أقول ، أوقع فى النفس، وأدل على الحق، من شهادة رجال لا يمتون إلى الإسلام بصلة ، وإنما هم مؤرخون أو علماء اجتماعيون ، يعطون الحوادث الإنسانية حقها من الرواية والتحليل

قال المسيو «هنرى دوكاسترى» أحد حكام الجزائر السابقين فى كتابه «الإسلام تأثرات ومباحث » .

« وبعد أن دان العرب للإسلام واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، إذعاناً منهم لما ورد فى القرآن من التوصية بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة ، كقول الكتاب :

« لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » وقوله : « وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

وقوله : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً . وقوله : « وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً » .

« هكذا كانت تعاليم النبي بعد أن دخل العرب في الإسلام ، وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا إلى القول بما قاله قبلنا « روبنسون » : إن شيعة محمد ،هم وحدهم، والذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ومحبة انتشار دينهم.

هذه العاطفة ، هي التي دفعتهم في سبيل الفتح ، وهو سبب لاحرج فيه .

فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة. إذ أغاروا على الشام، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية ، من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي ، ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب . فلم يبيدوا قط أمة أبت الإسلام » .

ثم قارن المسيو « هنري دوكاستري » بين هذا اللين والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية في الأديان التي تقدمته ،ونحن نعذرها في ذلك مراعاة لقانون التطور ، فقد كان زمانها غير الزمان الذي نزل فيه القرآن .

فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله: «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فأعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته ، فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان ، فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها ، فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » .

ثم قال المسيو « هنري دوكاستري » فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهوره ، أن انتشر الاسلام بسرعة ،وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطة المملكة الرومانية الشرقية —وهي مسيحية — التي أبغضها الناس وكرهوا الحياة في ظلها .

هذا وإذا انتقلت من الفتح الأول للإسلام إلى حين استقراره، رأيناه أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة المسيحي الشرق كله .

فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحي ، بل بقيت رومية نفسها حرة في مراسلة الأساقفة في مختلف البلاد الإسلامية » .

إلى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور، هى التى ضعضعت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا .

على أن الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره ،فلم يكره على الاخذ فيه أحد بالسيف ولا باللسان . بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والاخذ بالالباب » .

إلى أن قال :

« ولقد زادت محاسنة المسلمين المسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « الوزيجو » ويقول دوزى العالم الكبير « إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا .

وما حدث من الهرج والمرج بعده ، لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد .

وقدأبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، كثير منهم تولى قيادة الجيوش .

وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة ، انحياز عقلاء الامة الاندلسية إلى المسلمين ، وحصل بينهم تزاوج كثير » .

تقول إن الإسلام فى جميع أحوال الاجتماع جاء بأصول أرقى مما كانت عليه الاديان التى تقدمته ، سواء فى الحرب أم فى السياسة .

وهذا التطور يشاهد محسوساً من المقابلة بين تاريخ المسلمين ، وتاريخ زائدة من سبقهم من جميع الملل .

قال الأستاذ العلامة « درابر » المدرس بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » .

عامل العرب اليهود فى الأندلس فى ظل الحكومة الإسلامية أحسن معاملة ، حتى أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية فى الآداب والفلسفة .

فلما تغلب المسيحيون على الإندلس لم يطيقوا اليهود ، وأخذوا يتهمونهم باختطاف أولادهم .

فى سنة ١٤٨٧ شكلت لهم محكمة تفتيش فأحرقوا فى سنتها الاولى ألفى يهودى، ودفنوا عدة آلاف أخرى، وحكموا على سبعة عشر ألفاً منهم بالغرامات والسجن المؤبد .

وقد أحصى الذين قتلتهم هذه المحكمة فى مدى عشر سنين. فبلغوا عشر آلاف وثمانمائة وستين نسمة

وبلغ عدد الذين أمرت بتعذيبهم منهم سبعة وثمانين ألفاً ، وأحرقوا نسخ التوراة وكتبهم الادبية والفلسفية الخ الخ . ثم طردوهم من البلاد ، كما طردوا العرب قبلهم ، فهلك منهم ألوف مؤلفة ، جوعاً وعطشاً .

هذا قول عالم أمريكى من أشهر علماء الاجتماع .

فانظر بعد ذلك ،إلى تعسف وجهل الذين يغمطون حق المسلمين. ويتهمونهم بإثارة الحروب ، وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقة .

مع أنهم أتوا العالم بأصول جديدة فى هذا الباب ، لم تصل إلى مثله أوروبا إلى اليوم .

فلم يسمع عن قوم أنهم فضلوا قاهريهم على حكوماتهم الوطنية ، غير ماسمعناه عن الشعوب التى أخضعها العرب،وذلك لسمو المبادىء التى أدخولها على الاستعمار، حتى جعلوه سائغاً لدى الشعوب التى تمنى به .

وهذا لعمرى ، مجد عظيم لا يستطيع ألوف مؤلفة من المرجفين أن يهدموه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وكلما تقادم عليه العهد ، ازداد ظهورا ، وتلألأ نورا .

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ » .

ألم يثبت الإسلام أنه دين ترق ؟

من أشد التهم التى يوجهها بعضهم إلى الإسلام بعداً عن الحقيقة ، ومخالفة البدهيات التاريخية والاجتماعية ، قولهم إن الإسلام لم يثبت أنه دين ترق ، متظاهرين بنكران تلك الإنقلابات الضخام التى أوجدها فى الاجتماع والعلم والفنون والسياسة ، مما لم يجسر على نكرانها مؤرخ من أى دين كان .. ولم يجرؤ على إغفال ذكرها عالم اجتماعى من أى مذهب كان ، لاشتراك العالم كله فى التأثر بها على أقدار شتى .

فإذا ساغ لكاتب أن ينكر شيئا فى الإسلام ، فلا يصح له أن ينكر هذا الأثر الجلل الذى لهذا الدين .

لا أقول فى حماية العلوم والفنون، ولكنى أقول فى حفظ تراث العالم الإنسانى جميعه منها ، بعد ما كادت تلعب بها أيدى الإهمال ، ثم الذهاب بها إلى حد بعيد من الترقى ، والقيام بنشرها فى الخافقين .

حتى إن إبلال أوربا من داء التحجر الشنيع ،كان بسبب ما نشره الإسلام فى أرجائها من أشعته المحيية .

وكيف لايكون ما أوجده الإسلام انقلابات حقيقية ، وهو قد أشاد بذكر العلم ، حتى جعله مناط السعادة فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

« وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ » بكسر اللام .

وقال : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » . وقال : « قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» . وقال : « خذ الحكمة ولايضرك من أى وعاء خرجت » . وقال : « من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » إلى آيات وأحاديث لاينالها العد .

فهل من عجيب بعد هذا ، إذا اندفع المسلمون وراء تحصيل العلم اندفاعا لا يوجد فى تاريخ الجماعات ما يشبه ، حتى أصبحت عواصمهم .

بعد ردح من الزمن - عواصم للعلوم والفنون ، ورجالهم أئمة للآراء والمذاهب .

يحسن بى بعد هذا أن استشهد ثقات المؤرخين ، والعلماء الاجتماعيين من الاوربيين والأمريكيين ، ليكون الدليل أشد وقعا ، وأدعى للتسليم فأقول :

قال العلامة « درابر » :

« وإن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية سنة ٦٣٨ ميلاديه ، أى بعد موت محمد بست سنين .

ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح .

إلى أن قال : « ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة (٧٥٣ إلى ٧٧٥)م نقل عاصمة الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يأل جهداً فى نشر العلوم الفلكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة .

ولما تولى حفيده هارون الرشيد سنة (٧٨٦)م اقتفى أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه .

ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢) م فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى وجمع إليها كتبا لا تحصى ، وقرب إليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

«هذا المركز الذى اكتسبه العرب، وهذا الذوق السليم فى العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم إلى ثلاثة أقسام .

فإن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى أسبانيا ، لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فقط . بل كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضا .

ذاق العرب فى الفنون الادبية كل مامن شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن، وقد افتخروا فيما بعد، بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الامم كلها مجتمعة

أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الاسلوب الذى توخوه فى المباحث ، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاروبيين .

فإنهم قد تحققوا أن الاسلوب العقلى النظرى ، لايؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى كشف الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها .

ومن هنا كان شعارهم فى بحوثهم الاسلوب التجربى والدستور العملى الحسى.

وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق .

وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والابصار ، أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

« هذا هو الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد) والتصفية الخ ، وهذا بعينه أيضاً هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة (آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للأجسام والازياج الفلكية ، جدوال نعرف منها حركات الكواكب ، مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند .

وهو أيضاً الذى حقق لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات .

وهو أيضاً الذى أدى لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الارقام الهندسية

هذا هو ثمره تفضيلهم لاسلوب أرسطو الاستدلالى ، على مقالات أفلاطون الإستنتاجية .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة ، وتكوين المكتبات التى تكلمت عنها .

إلى أن قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستمائة ألف مجلد ، وكانت قائمة أسمائها وحدها واقعة فى أربعة وأربعين مجلدا . وغير هذا ، فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة ، وكثير من المكتبات الخاصة » .

إلى أن قال دابر نفسه :

« أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه .

« ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم ، كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال ، وتراجم الخيول والإبل . .

وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر .

وما يعرف من الرقابة على الكتب اللاهوتية ، فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ

وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لأن تتخذ مرجعاً ، كثيرة جداً فى الجغرافيا والإحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة .

وكان لديهم دائرة معارف علمية ، ألفها محمد أبو عبد الله .

وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض ، وفى إعطاء المداد الألوان المختلفة ، فى زخرفة وجوه الكتب بتشبيك تلك الألوان المختلفة من المداد والإبداع فى تنميقها وتذهيبها على صور شتى .

« وكان الملك الإسلامى العربى يغص بالمدارس والمكتبات .

وكان ببلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس عدد عديد منها .

وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة ، التى فاقت المملكة الرومانية كثيراً ، مرصد فى سمرقند . لرصد الكواكب .

وكان يقابله فى الطرف الآخير مرصد « جيرالد » فى الأندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم تطوروا بالعلوم القديمة تطورا كبيراً جداً ، وأوجدوا علوما جديدة ، لم تكن معروفة قبلهم » .

ثم قال :

اهتم الفلكيون من العرب أيضاً بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة الشمسية

وهم فى أول من استعمل البندول « الرقاص » لهذا الغرض .

« أما فى عالم العلوم التجريبية ، فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضا من المحاليل الشهيرة مثل حمض الكبريتيك ، وحمض النتريك .

« استخدم العرب على الكيمياء فى الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية .

أما فى علم الميكانيكا ، فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام . . وكانوا ملمين كل الإلمام بعلم الحركة .

« أما فى الايدروستاتيك ، فقد كانوا أول من وضع الجداول المبينة لضرب الاوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثاً عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء .

أما فى نظريات الضوء والابصار ، فقد غيروا الرأى اليونانى الذى مقتضاه نتيجة وصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى ، وقالوا بعكس ذلك ، أى إن الابصار يحصل بوصول شعاع من المرئى إلى العين .

وكانوا يعرفون نظريات إنعكاس الأشعة وانكسارها .

وقد اكتشف الحسن الشكل المنحى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو .

وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق . وكذلك نراهما فى الغرب بعد أن يغيبا بقليل .

إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى حققته الصناعة فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد ، وتربية

الحيوانات ، وسن ووضع النظم الزراعية الحكيمة ، إدخال زراعة الأرز والسكر والبن.

وقد انتشرت المعامل والمصانع لكل نوع من أنواع المنسوجات ، كالصوف والحرير والقطن .

وكانوا يذيبون المعـادن ويجرون فى عملها ، على ما حسنوه وهذبوه ، من صنعها وسبكها .

وأننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .

من ذلك أن مذهب النشوء والإرتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس فى مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على المواد الصلبة والمعادن أيضاً .

وقال العلامة الدكتور « جوستاف لوبون » الفرنسى فى كتابه «تمدن العرب» العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية ، لم يهملوا تطبيقها فى ميدان الصناعة . فقد كان لعلومهم فضل تجويد صناعاتهم إلى حد كبير .

وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرق التى سلكوها لذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها .

فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم ، واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب .

وأنهم برعوا جداً فى الصباغة ، ومهروا فى صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى وأنهم فى كثير من فنون الصناعة قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن .

وقال العلامة «جيبون» المؤرخ الإنجليزى المشهور عند ذكره الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم :

وكان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم ، أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى ، إلى فارس وقرطبه .

ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار ، لتأسيس كلية علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً . وكان عدد طلبتها ، ستة آلاف ، لا فرق فيهم بين غنى وفقير ، الخ .

وبعد فأقول : لو أردت نقل ما يقع تحت يدى من أقوال المؤرخين والعلماء الاجتماعيين فى هذا الباب ، لملأت مجلدات ضخمة .

فلا كتف بما قدمت ، فانه يكفى فى دحض قولهم : إن لم يثبت أنه دين ترق .

* * *

الفصل السادس

المرأة فى الإسلام

* المرأة والرق فى الإسلام
* الطلاق وحقوق النساء فى الإسلام
* تعدد الزوجات فى الإسلام
* علاج الفقر فى الإسلام
* دفع شبهات عن القرآن

المرأة والرق فى الإسلام

من الاتهامات التى توجه الإسلام أنه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل الطلاق للرجل ، وأن ماتعانيه المرأة المسلمة من حالتها السيئة يعود إليه ، فترد على هذه الشبهات على حسب ترتيبها فنقول .

وجد الاسترقاق منذ وجد الإنسان ، فإن القوى يغلب الضعيف ويستبعده .

وقد شوهد الاسترقاق لدى بعض طوائف الحيوانات وأخصها النمل ، فإن بعض أنواعه يأسر البعض الآخر عقب اغارته عليه ويستخدمه . .

وقد كان المصريون الاقدمون والبابليون والبراهمة الهنود والفرس يتخذون الرقيق ويعاملونه بقسوة ، .

وكان اليونانيون يتخذونه أيضاً ، وقد أقره أرسطو وأفلاطون وغيرهما من كبار الفلاسفة الاغريق الاولين .

أما الرومانيون فقد توسعوا فى الاسترقاق إلى حد بعيد .

واتفقت جميع الأمم القديمة على معاملة الارقاء بأشد ضروب القسوة ، وعلى الحصول على الرقيق بكل الوسائل الممكنة ، لا فرق بين مشروع وغير مشروع .

وقد أقر الإسرائيليون الاسترقاق على ما كان عليه . ولم يتناولوه بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية أقرت الاسترقاق وعدته شرعياً . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر[1] :

الديانة المسيحية لم تستنكر الاسترقاق فى ذاته ، ولم تعمل فى إبطاله ، فإن شرعيته لم تكن قط لديهم موضعا للبحث .

ولدينا نصوص عن بعض القديسين يشيرون فيها على العبيد بوجوب إطاعة سادتهم والصبر على أحوالهم ، ويذكرون لهم أن استرقاقهم مستند إلى أصول إلهية

---

(١) المجلد السابع صفحة ٨٦٥

وقد ذكر العلامة « درابر » أن آباء الكنيسة كانوا ينافسون الكونتات فى اقتناء الأرقاء .

وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق ، كان قانون الامبراطور بترونيا الرومانى — وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا باذن من القاضى .

وفى عهد الامبراطور « أنتونان » الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة .

ثم صدر قانون على عهد الامبراطور كلوبوس يعتبر فيه قاتل العبد مرتكبا لجناية القتل وقد ألغى هذا القانون بموته . .

وأول قانون صدر فى شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة « ١٦٨٥ » .

وقد نص فيه على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيدة أو أحد الأحرار ، أو ارتكب أخف السرقات ، فان جزاءه القتل » .

وقد أصدر الإنجليز فى ذاك العهد قانونا بأن العبد إذا أبق واستمر فى إباقه أكثر من ستة أشهر فجزاؤه القتل » .

وصدر فى عهد الملك لويس الرابع عشر الفرنسى — أى فى القرن الثامن عشر — قانون جاء فيه هذه العبارة . « أن من توفية حق النظام أن لا نتنازل عن احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته ، وقد حصل التصميم على إبقاء الحكم الاعتبارى الذى يحرم ذوى الألوان وذريتهم من مزايا الجنس الأبيض إلى أبد الآبدين .

هذا كله كان حاصلا فى أوربا وأمريكا حتى سنة « ١٧٨٠ » ثم استمر إلى « ١٨٨٠ » حيث قامت إنجلترا بحملتها لإبطال الاسترقاق .

أما الإسلام فقد كان مجيئه عهدا ميمونا للارقاء كما كان عهدا ميمونا للعالم كله . . فهو لم يكتف بالتوصية بهم والتلطف فى معاملتهم ، ولكنه ساواهم بالأحرار ، وقرر أن من قتل عبدا قتل به وجعل للأرقاء حقوقا فى مستوى حقوق الأحرار .

إن صدور مثل هذا التشريع فى جزيرة العرب ، وناهيك بتغلغلها فى الاسترقاق وامتهان الارقاء ، يعتبر من أدل الدلائل على سماحة الإسلام . فلا القرن الذى أنزل فيه ، ولا عادة العرب فى ذلك العهد ، ولا الرأى العالمى العام فى الاستخفاف بالعبيد ، كان مما يسهل صدور نصوص فى شريعة كالشريعة الإسلامية تخالف هذا الإجماع المحبوك الأطراف وتهب للأسرى الذين ليس لهم من يطالب بحقوقهم الضائعة ، حقوقا لم يفكر فيها مشروع حتى ذلك الحين !

اعترف الإسلام قبل كل شىء بأن الأبيض والأسود سواء ، كما أن العربى والأعجمى سواء كذلك امام القانون ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .

فهدم بهذا الأصل الأصيل حوائل الألوان التى كانت تحول دون إقرار العدل فى نصابه فى جميع البلدان . .

ثم قرر للأرقاء الحقوق نفسها التى للأحرار ، بل جعل للارقاء — وهو أمر مدهش ويدل على غاية التلطف بالضعفاء — مزايا ليست للاحرار ، وذلك أن العبد إذا ارتكب جريمة فعليه نصف ما على الحر من العقاب ! .

نعم أقر الإسلام الاسترقاق ، وهو بذلك قد سلك طريقته فى أخذ الأمور الاجتماعية بسنة التدريج ، لأنه كان لا يستطيع إبطال أمر أجمعت عليه الأمم كافة كاساس من أسس العمران ، وارتضته جميع الأديان ، وبان متأصلا فى الأمة العربية إلى حد بعيد . ولكنه حيال هذا الإقرار عمد إلى فرض مبادىء تعتبر مهيئة لإلغائه بدون حرج ، حين يقتضى ذلك نظام المجتمع وهى .

أولا — أوحى بهم فى مواطن كثيرة من الكتاب والسنة .

فقال تعالى : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » إلى قوله : وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » .

وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوصية بهم حتى قال وهو يجود بنفسه : « الصلاة وما ملكت أيمانكم .

ثالثاً — ساوى العبيد بالأحرار ، ورفع ما بينهم من التمييز فى الحقوق ، وحكم باخوتهم الإنسانية لسادتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام .

(إخوانكم خولكم (أى أن أرقاءكم الذين يتخولونكم بالخدمة إخوانكم) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس) .

وبما أنهم أصبحوا للأحرار إخوانا بحكم هذه الشريعة الإلهية ، فلا يصح أن يدعو السيد رقيقه عبداً ولا رقيقته أمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى وغلامى) .

وزاد النبي صلى الله عليه وسلم الأرقاء توصية بهم لحسن الناس تعليمهم وتزويجهم فقال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وزوجها كان له أجران » .

سرت هذه التعاليم فى المسلمين الأولين ، وجرى عليها النبي صلى الله عليه وسلم بالعمل ، فولى بلالا — وأصله رقيق حبشى — المدينة ، وفيها وجوه العرب وسادتهم .

وولى مولاه أسامة بن زيد ، قيادة الجيش وفيه أبو بكر وعمر .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له : « أحمله خلفك يا عبد الله ، فإنما هو أخوك وروحه مثل روحك » .

ولما ذهب أمير المؤمنين عمر إلى الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقاً له ، فكان يركب هو مرحلة ، ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه . ولما وصل إلى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه ، فقابل الناس على هذه الصورة !

وقد أرسل أبو عبيدة القائد العام لجيش أبى بكر فى الشام جنوداً لفتح مدينة وجعل قائدهم زنجيا ، تأسيا بما فعل رسول الله صلى عليه وسلم .

وبعث عمرو بن العاص إلى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، وفدا ليتفاوض

معه فى أمر الصلح ، على رأسه عبادة بن الصامت وهو زنجى أسود ، فلما وقعت عين كبير القبط عليه ، قال : « أبعدوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره » .

فقالوا جميعاً : « إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا » .

وقد وصل الأرقاء لدى المسلمين إلى أعلى المناصب فكانوا وزراء للدولة وتولوا الملك أيضاً .

علمنا كل هذا وهو أغرب ما نرويه فى تاريخ الاسترقاق .

فهل عمل الإسلام على حصر دائرته ، وهيأ العوامل لإبطاله ، حين يصبح فى عرف الاجتماع أمراً مستنكراً ؟ .

نعم ، فإنه حصره فى دائرة الحروب المشروعة ؛ وعلق أمره بولى أمره .

ومعنى هذا ، أن لا استرقاق إلا فى حرب .

أما ما يجتلب بوساطة النخاسين من طريق الاختطاف والتصيد ، فلا يجيزه الشرع الإسلامى ولا يعتبره .

حتى إن أحد العلماء العاملين أراد فى القرون الأخيرة أن يشترى عبداً فأعوزه ، لعدم انطباق مالديه من نصوص الشريعة على من قدموا إليه بدعوى أنهم أرقاء،وماهم إلا مختطفين من أحضان أهلهم .

وقد جعل الإسلام أمر الاسترقاق فى يد حاكم المسلمين ، تذرعا لبطلانه حين تستعد الشعوب لذلك .

فإن للحاكم أن يتخذ الأسرى ، وأن يقبل منهم الفدية ، وأن يمن عليهم بالحرية بعد أن تضع الحرب أوزارها . .

فليس هناك تحتيم فى استرقاقهم .

فإن وصل الناس إلى مستوى من الشعور ، يستنكرون فيه الاسترقاق ، فما على حاكم المسلمين إلا الامتناع عن إجازته ، فيبطل كما حصل منذ أن عمت الدعوة بالكف عنه .

فإن المسلمين قابلوا هذه الدعوة بقبول حسن، ولم يروا فيها منافاة للشريعة ، وشأنهم فى كل تجديد يراد به خير الإنسانية .

هذا كله يعتبر من الانقلابات التشريعية التى لم تطف بخيال أكبر المشرعين ، ولا أجل الفلاسفة فى عصر من العصور . .

فهل يصح أن تقلب هذه الحقائق الضخمة ، فيوصم الدين الذى مصدره هذا النور الباهر ، بأنه كان يؤيد الاسترقاق ويعمل على نشره ؟ وقد أريتك من سيرته حياله ، ما يصغر فى عينيك كل عظيم فى العالم الإنسانى ، لم يفكر فى مثل مافكر فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وحده ؟ .

* * *

الطلاق وحقوق النساء فى الإسلام

ليس فى تاريخ التطورات التشريعية ما هو أعجب مما أحدثه الإسلام فى الشئون النسوية ، فقد أوجد فى حالتها انقلابا ، لا يزال بينه وبين أرقى الأمم بون بعيد .

ماذا كانت حالة المرأة فى القرن السابع للميلاد ، وهو العهد الذى بعث فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ؟

كانت المرأة مستعبدة فى كل مكان ، وليت ذلك كان بالمعنى المعروف للعالم اليوم . . ولكنها كانت ضعيفة للغطرسة والقسوة إلى أبعد الحدود .

فلا أقول إنها كانت محرومة من جميع الحقوق الطبيعية ، وكانت مملوكة لزوجها الخ . فهذه كلها عبارات لا تصور حقيقة ما كانت عليه المرأة فى أوربا وفى العالم كله . .

إنها إذ ذاك ، كانت أقل من أن يؤتى بجانب اسمها بكلمة حقوق ولو فى معرض النفى ، لأنها كانت تعد جسداً لا روح له !

نعم أنه قد اجتمع مجمع كبير فى رومية وبحث فى شئون المرأة .

فقرر أنها كائن لا روح له ، وأنها لن ترث الحياة الأخرى لهذه العلة ، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم ؟ وأن لا تضحك ، بل ولا أن تتكلم، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها فى الصلاة والعبادة والخدمة .

وحتى يمنعوها من الكلام ، جعلوا على فمها قفلا ، كانوا يسمونه (موزلير)[١] فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تسير فى الطرقات وفى فمها قفل ، وتروح وتغدو فى دارها وفى فمها قفل . . قفل من حديد !

وهذا عدا العقوبات البدنية التى كانت تتعرض لها المرأة باعتبار أنها زائدة الإغواء ، وآلة التسويل ، يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب[٢]

---

(١) Muselierg

(٢) راجع المجلد الحادى عشر من مجلة المجلات الفرنسيه .

أما فى بلاد العرب ، فكانت المرأة فى عداد البهائم . . تورث مع ماشية زوجها . وتصبح ملكا لورثته ، وكانت تجبر على الفسق والتهتك ، لتزيد من ثروة المسيطر عليها ، وكان للرجل أن يختار من النساء العدد الذى يرضاه لنفسه بلا تحديد . .

وهل كان لها حق من الحقوق المعروفة الآن ؟ . . لا ، حتى ولا فى وراثة أبويها ، وهل ترث بهيمة مجردة من الروح ؟

نعم رويت عن العرب أشعار فى الغزل والتشبيب ، ولكن هذا لا يعدو المناطق البهيمية من النفس . . وقد كان العربى يتغنى بفضائل ناقته وحصانه ، وهذا ما كان ليمنعه أن يطلق سراحهما ليموتا جوعاً متى بلغا الدور الذى لا ينفعانه فيه .

جاء الإسلام والعالم على ما وصفت لك ، فكان مجيئه عهد انقلاب فى تاريخ المرأة لم تسبق له مثيل فى أطوار أمة من الامم .

نعم أدرك نساء رومية عهداً ، فى أواخر عهدها بالوجود ، يحتمل أن يعده بعضهم عهداً ذهبياً لهن ، والواقع أنه كان من أتعس العهود عليهن وعلى دولتهن .

فقد فسدت نفوس الرومانيين فى ذلك العهد بطراً من سعة السلطان الذى أوتوه ، إلى حد أنهم أصبحوا لا يحلمون فيه بغير المتع الجسدية ، واللذات البهيمية .

فأطلقوا للنساء العنان ، لا ليكن نساء كاملات ، يقمن على أحكم الأصول ، ويربين أولادهن على أرقى المبادىء . . لا

ولكن ليكن آلات شهوات ، وأدوات بذخ وخلاعة . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر .

« فى الأيام الأولى من الجمهورية الرومانية كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف ، ولكن البذخ تسرب إلى رومية شيئاً فشيئاً حتى قام (كاتو) ينذر بالخطر المحدق الذى سيلتهم كل شىء . . وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ والترف عند حد)

ثم أردفت دائرة المعارف ذلك بقولها : «كاتون» لم ينجح فى دفاعه عن ذلك القانون (القانون المانع لتهتك المرأة . ولكن إنذاراته تحققت تماما ، أى أن الدولة الرومانية مازالت من الوجود وانقلبت حال المرأة فدخلت فى دور من الأسر ، لازمها نحوا من ألف سنة حتى ازدهر العلم فعمل على إنقاذها منه يسيرا يسيراً حتى تم لها مايراها الناس عليه اليوم » .

ولكن الإسلام أحدث انقلابا فى حالة النساء لا من ناحية اتخاذهن آلات للشهوات ، ولكن من ناحية إحياء حقوقهن الطبيعية ، وإحلالهن من المجتمع فى المكان اللائق بهن ، حيث تظهر خصائصهن وتشرق مزاياهن ، ليتم للمجتمع جميع عوامل التكمل والوصول إلى أبعد غايات الرقى الاجتماعى .

فأوجد لبلوغ هذه الغاية مبادىء جعلها فى مستوى العقائد الأولية .

منها أن المراة والرجل عضوان مكتملان ، خلقا ليؤلفا الأسرة ، ويعيشا على أكمل حال من التواد والتعاطف ، فقال تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

وبما أن هذا الجنس من أنفسنا ، أى منا ، كان جديرا أن يكون له مالنا وعليه ماعلينا :

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

نعم وقد راعى الشرع الإسلامى ذلك ، فجعل لهن حقا فى الميراث، ووهبهن جميع الحقوق المدنية التى للرجال . حتى حق التملك والتعامل على ضروبه كافة ، وفتح لهن جميع باحات العمل من تجارة وصناعة الخ .

ولم يوصد فى وجوههن بابا من أبواب الحياة ، غير باب التبرج والتهتك .

وليس فى العالم من يلومه على ذلك ، ولا نظن أنه سوف يأتى جيل يلومه عليه ، مهما توسعت الإنسانية فى محاباة المرأة .

إذا كانت الديانة الإسلامية اعتبرت المرأة إنساناً فى مستوى الرجل ، فهل أباحت لها ترقية مواهبها العقلية ، أم وضعت أمامها حدا لا تتعداه ، كما فعل العالم كله إلى ماقبل قرن واحد فقط ؟ .

ألم تكن الأمم تحرم عليها دخول الجامعات ، وتوصد فى وجهها باب التعليم العالى فى كل مكان ؟ .

نعم أباحت الشريعة الإسلامية للمرأة التعليم ، بل جعلته فريضة عليها ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، .

بهذا النص صار الإسلام أول من قرر تعميم التعليم بين الجنسين على السواء .

وكان التعليم قبله محصورا فى طبقة الأغنياء والمستبدين بالشعوب .

ولم تجعل الشريعة له حدا ، فللمرأة أن تبلغ منه الحد الذى تريده ، وقد وصل بعض النساء إلى أعلى الدرجات فيه .

أليس من المدهش أن يكون الإسلام قد أباح للمرأة ، متى وصلت إلى حد بعيد من العلم ، أن تكون قاضية ومفتية ، وأن تتولى التعليم العالى ؟ .

نعم كل هذا كان فى الإسلام . . وأشد منه موجبا للدهشة ، أنه أمر بأن تشهد المسلمات الصلوات فى المساجد وشئون المسلمين العامة التى كانوا يجتمعون فيها بدعوة أمرائهم لتقرير التدابير الضرورية ، حيال أى طارىء من الطوارىء الاجتماعية ، أو لأخذ رأى الناس فى سن سنة جديدة للمجتمع . لذلك كن يحضرن فى تلك المجامع .

وقد حدث مرة أن رأى أمير المؤمنين عمر أن يستشير الناس فى تحديد صداق النساء للحيلولة دون المغالاة فيه . فلما أفضى برأيه إلى الناس وهو على المنبر ، تصدت له امرأة وناقشته فيه ، فعدل عن رأيه إلى رأيها .

أفلا يمكن أن تعد هذه سابقة فى الإسلام ، إذا دعانا داعى التطور الاجتماعى

فى يوم من الايام ، أن تمنح نساءنا حقوق الانتخاب والحصول على النيابة فى الهيئات التشريعية ؟ .

ومما اختص به الإسلام ، الذهاب فى احترام الحقوق الطبيعية للمرأة إلى حدود لم تدر فى خيال مشرع مدنى إلى اليوم .

فالإسلام لم يكلف المرأة ، وهى زوجة ، بأى حق تؤديه للرجل غير حفظ عرضه وطاعته فى المعروف ، باعتبار أنه الرئيس الطبيعى للأسرة .

فلم تكلفها الشريعة الإسلامية بخدمته ، ولا بخدمة أولادها ، ولا بخدمة نفسها أيضاً ، بل ولا بارضاع أولادها ولا حضانتهم .

ولكن الزوج ملزم بأن يوجد لها من يخدمها ، فإن كان فقيرا تولى هو القيام بحاجاتها . .

فإن ولد لها طفل ، فعليه ان يستأجر له مرضعا وحاضنة ، فإن قبلت والدته أن ترضعه وتحتضنه كان لها على ذلك أجران .. أجر الإرضاع واجر الحضانة ، إلا إذا كان الزوج فقيراً فيتسامح له الشرع فى أمر هذا الحق بضرورة الحال .

والمرأة المسلمة لاتفقد بزواجها شيئا من أستقلالها المالى . فتظل على حريتها فى التصرف بمالها وأملاكها . .

وليس عليها ان تتقيد برأى زوجها فى معاملاتها الاقتصادية فتبيع أملاكها أو تؤجرها أو ترهنها .. لاتصدر فى ذلك كله إلا عن إرادتها الشخصية .

هذا الحق لم تنله المراة الغربية إلى اليوم ، فإنها بزواجها تقع ـ من ناحية تصرفاتها الاقتصادية ـ تحت وصاية زوجها .

فلا تستطيع أن تبيع أو تشترى أو ترهن شيئا من املاكها إلا بتصديق زوجها فإن القانون يهبه حقا على أملاكها ليس لابويها ولا لاحد أقربائها .

ولا شك فى أن هذا بقية من بقايا أسر المرأة فى الأزمنة المظلمة .

هذه الحقوق الممنوحة للمرأة المسلمة ، لم تحلم بها أية فلسفة إلى اليوم .

وقد منحها الإسلام للمراة ، لاجزافا ، ولكن لرفع نير العبودية عنها . وهو

النير الذى لاتزال تحمله جميع نساء العالم إلى اليوم. وبقصد وضع حقوقها الطبيعية موضعا شرعيا لايمكن نقله ولا تأويله .

فلو كان الإسلام يعتبر المرأة رقيقية لزوجها ، أو لو كان لايعتد بحقوقها من ناحية عملية ، لما قرر فى أمرها هذه المبادىء التى لايوجد فى العالم الإسلامى من ينكرها او يتأول فيها ، وقد أجمعت المذاهب الفقهية عليها إجماعا لايتطرق إليه الضعف من أية ناحية .

إن الفيلسوف ليتولاه العجب ، وتأخذ منه الحيرة كل مأخذ ، إذا نظر إلى هذه الحقوق النسوية نظرة تشريعية واجتماعية محضة ، وعلم أن مصدرها بلاد العرب . . تلك البلاد التى كانت تمتهن فيها المرأة امتهانا لامذهب بعده .

فلا حالة المرأة فى العالم كله ، ولا حالتها فى البلاد التى صدرت منها هذه الشريعة ، كانت فى القرن الذى أنزل فيه الإسلام ، توحى إلى أى مشروع — حتى فى الأمم التى بلغت أرقى الأدوار التشريعية أصدر مثلا هذه المبادىء التى لم تصل إليها المرأة من أى دين كان إلى عهدنا هذا .

لاجرم أن هذا من ادل دلائل الوحى الإلهى ، لأن العقل المجرد لايستطيع أن يتعدى المناطق التى رسمتها له الحوادث ، وحددتها الضرورة المحيطة به .

تعدد الزوجات فى الإسلام

الإسلام لم يوجد الطلاق ولكنه جاء فألفى العالم كله يبيحه منذ القدم ، إلا أمة أوأمتين فقط . . فكان الرجل إذا غضب على إحدى نسائه طردها من داره لتذهب حيث تشاء دون أن يجد نفسه مطالبا حيالها بأى حق .

لما نبه ذكر الأمة اليونانية ، وازدهرت حضارتها ، كان الطلاق شائعا فيها بلا قيد أو شرط . .

وكان الطلاق لدى الرومانيين يعتبر من كيان الزواج نفسه . حتى إن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إذا اشترط كلا الطرفين عدم الطلاق فيه .

وكان الزواج الدينى لدى الأجيال الأولى للرومانيين يحرم الطلاق .

ولكنه فى مقابل ذلك ، كان يمنح الزوج على امرأته سلطانا لا حد له . . فيبيح له أن يقتلها إذا فجرت وقتلت بعض أولادها ، أو قلدت مفاتيح الدار ، أو أدمنت الخمر .

ثم رجعت دياناتهم ، فأباحت الطلاق ، كما كان مباحا أمام القانون المدنى .

لما جاءت الديانة الموسوية ، حسنت من حالة الزوجة ، ولكنها أباحت الطلاق وتوسعت فى إباحته .

وكان الزوج يجبر شرعاً على أن يطلق امرأته إن ثبتت عليها جريمة الفسق ، حتى ولو غفر لها هو تلك الجريمة

وكان القانون يجبره أيضاً على أن يطلق امرأته إن لبثت معه عشر سنين ولم تأته بذرية ، حتى ولو كان يؤثر البقاء معها .

أما المسيحية فقررت عدم جواز الطلاق إلا بسبب ثبوت جريمة الفسق ، أو طلبا للفسل فى حالة ثبوت العقم .

فلما شرع الإسلام ، أقر إمكان الطلاق مع التكريه فيه . . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وهو إنما أباحه إذا وصل الزوجان إلى درجة من التباغض لاتمكن معها المعاشرة ، رامياً بذلك إلى ضرورة سيادة التواد والتراحم فى الأسرة ، معترفاً بأن فى الحياة منازعات لايحسمها غير الفراق .

ولكنه فى حالة الطلاق أحاط المرأة بكل مايعقل من ضروب الحماية .

فجعل من واجبات الزوج أن يسرحها بإحسان وأن لايرهقها أو يسلبها أمتعتها .

وعليه أن يوفيها بمؤخر صداقها ، وعليه أن ينفق عليها تنقضى عدتها ، ولا يكون لديها مانع التزوج بسواه .

فإن ادعت أنها لم تر الطمث ، كان على الزوج أن ينفق عليها حتى تعترف بأنها رأته ، ولو لبثت على إنكارها سنين ، كما هو مؤدى مذهب أبى حنيفة .

وهذا ضرب من ضروب الحماية للمرأة ، لم يسبق له مثيل فى ملة من الملل .

والغرض منه كبح رعونة الرجل عن الاستخفاف بأمر الزوجية ، واللعب بإباحة الطلاق على مايمليه الهوى .

وقد أوصى الإسلام ، قبل إيقاع الطلاق ، أن يلجأ الزوجان إلى التحكيم لإصلاح ذات البين ، فإن لم يتسن للحكمين التوفيق بينهما ، عمداً إلى الطلاق ، باعتبار أنه المخرج الوحيد من الحرج بين الزوجين .

فالطلاق فى الإسلام كما ترى ، مضيق عليه من الوجهة الشرعية . . ناهيك أنه يعتبر فى نظر الناس ، أنه أبغض الحلال إلى الله .

وإذا كان الإسلام قد اعترف بأن الطلاق أبغض الحلال ، فهلا كان حرمه كما حرمته الديانة المسيحية قبله ؟

لا . . فإن تحريمه يفضى إلى حرج شديد بين نفسين خلقتا لتعيشا مهنأتين غير منغصتين ، والنزاع فى الحياة الزوجية مجلبة لكل ضروب الشرور .

وموحى الإسلام كان يعلم بأن الامم المحرمة له ستضطر إلى إباحته — بعد أن تبلغ رشدها — غير معتدة بأوامر دينها ، وهو الذى حدث .

فإن أكثر الامم عمدت إلى إباحته فى القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين

أخذ الطلاق فى الانتشار إلى حد لايكاد يتصوره العقل ، وخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية . ولم يدر فى خلد أحد من المصلحين هناك ولا فى أوربا ، أن يسعى فى إبطاله ، لأن الحياة المدنية لا يمكن أن تستقيم بدونه . .

فالإسلام بإباحته الطلاق والحالة هذه — وهو دين عملى أساسه مسايرة التطورات البشرية والإنقلابات المدنية ، لتعديل مزاجها وتلطيف خشونتها — لم يرد أن يكون ديناً خياليا يقصره على المعابد ، ويكون بين الناس وبين العمل به عقبات لايمكن تذليلها . .

هنا يمكن أن يقول قائل : كيف يتفق أن يكون الإسلام قد أسبغ على المرأة حقوقا لم تنل امرأة غيرها فى العالم ، كما تقولون ، وقد أعطى للرجل حقاً صريحاً فى تطليقها وهدم حياتها الزوجية فى أى وقت يريد ؟ .

نقول : نعم ، إن الطلاق هذا كان يمكن أن يعتبر من الأمور الحاطة من كرامة المرأة المسلمة إذا كان الإسلام لم يساوها بالرجل فيه .

فهذا الدين لم يمنح الرجل وحده حق الطلاق ، ولكنه ساوى بين الذكر والأنثى فيه . .

فقرر أن للمرأة أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون حق الطلاق لها دون الرجل ، فتصبح عقدة الزوجية فى يدها ، تحلها فى أى وقت تشاء .

وقد استفادة كثير من النسوة من هذا الحق ، فجعلن عصمتهن بأيديهن ، وبقين مع أزواجهن على هذه الحالة ،أو طلقنهن عندما رأين أن الصواب فى الانفصال عنهم . وكل مأذون شرعى ، وكل محكمة شرعية ، تقبل هذا النوع من الزواج بدون قيد ولا شرط .

وفوق هذا ، فإنه أباح للمرأة حق الاشتراط على زوجها فى حالة تزوجه عليها أو تطليقها ، بأن يدفع لها تعويضاً ماليا أو غير ذلك . .

فاذا كان المسلمون قد أهملوا الاستفادة من هذه الحقوق الشرعية ، ورضوا أن يجعلوا بناتهم تحت سيطرة الرجال ، فلا يعيب شريعتهم ذلك ، ولكن يصمهم هم بالتفريط فى حقوق بناتهم . .

ويخيل لى أنه لن يمضى وقت طويل حتى يتنبه الناس لهذه الحقوق فيستفيدوا منها ، وبذلك تصبح الحماية التى يهبها الإسلام للنساء مضرب الأمثال فى مشارق الأرض ومغاربها .

هذا من أمر الطلاق ، أما مسألة تعدد الزوجات فإن الإسلام لم يوجدها أيضاً ، ولكنه جاء فوجد الناس كلهم يبيحونه إلا الأمة المسيحية .

وكان العرب فى جاهليتهم من أكثر الأمم تعديداً للزوجات . .

فرأى الإسلام أن يتوسط فى الأمر فجعل للتعديد حداً لا يتعداه ، وقرر أن من أقدم على هذا الأمر ، لزمه العدل بين الزوجات ، حتى قال الله تعالى :

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما ، بعث يوم القيامة وشقة مائل » .

على أن للإسلام من إقراره مبدأ التعدد ، غرضاً بعيد الغور فى الاصلاح الإجتماعى ، لا يدركه إلا نافذو البصر فى العلم .

وهو أنه علم أن من الرجال من لا يمكن ان يردعهم عن المضى فى شهواتهم رادع ، وأن العقوبات المشددة والنصائح المؤكدة لا تكفى ، فى كبح إندفاعاتهم الجنسية .

فاباح لهم التعدد ، لا ليجد هؤلاء لهم مخرجا من الحرج فقط ، ولكن ليحمى المراة من شر مستطير وقعت فيه المراة الغربية ، ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ، ما لقيت . .

نعم ، لأن امثال أولئك الرجال فى البيئات الغربية — حيث لا يسمح بتعدد الزوجات — يتخذون صاحبات يسمونهن « متريسات » ، ومهما أساغ المجتمع رؤية هواء « المتريسات » والعلم بامرهن ، فإنهن لم يخرجن فى اعتباره عن طبقة المتجرات بنفوسهن ، والراضيات بعيشة الهوان محرومات من جميع الحقوق النسوية .

ولكن الإسلام لم يرض للنساء بهذه الدركة الساقطة من الحياة .

ولم يشأ أن يراهن قط عاهرات ، ولا فى حكم العاهرات ، محرومات من كل ضروب الحماية والحقوق الشرعية .

فرمى بشرعية إمكان تعدد الزوجات إلى أن لا تكون المرأة فى حالة من أحوالها محرومة من حقوق تطالب بها أمام القضاء : وإلى أن لا تسقط من أوج كرامتها الجنسية إلى حضيض النسوة المجردات من حقوقهن الاجتماعية .

نعم ، إن فى أوربا وأمريكا ، عشرات الملايين من النسوة يعشن « متريسات » ، أو شبه « متريسات » ، وقد يرزقن بأولاد يحرمون هم أيضاً من حقوق الوراثة ، وقد تسببت من هذه الحالة مشاكل اجتماعية لاتقف عند حد ، جعلتها الجمعيات النسوية من أدلتها فى وجوب إلحاق الأبناء الطبيعيين بآبائهم غير الشرعيين ، ولا يزلن إلى اليوم يجاهدن فى هذه السبيل ولم يصلن إلى شيء .

وبما أن غلبة الشهوات متأصلة فى طبيعة الكثيرين من الرجل ، واتخاذ « المتريسات » لامناص منه فى كثير من الأحوال ، فقد احتاط الإسلام لهذه الحالة بإباحة تعدد الزوجات مع التكريه فيه كما رأيت ، لا ليشبع الغريزة البهيمية للرجال ، ولكن ليحمى المرأة من الوقوع فى حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية ، وتبرز للمجتمع فى عداد النسوة الساقطات . .

فهو يريد أن تعامل المرأة فى جميع الأحوال ، باعتبار أنها زوجة شرعية ذات حقوق ، لا باعتبار أنها ساقطة من كل حماية من القانون .

فمسألة التعدد لو نظر إليها من هذه الناحية ، تصبح فى نظر العارفين بأدواء المجتمع وطبائع الإنسان ، من النظم العادلة الموضوعة لتدارك مشاكل اجتماعية غاية فى التعقد وسوء المنقلب ،

وهو يشكر على إساغتها — على كراهيته لها — من باب « بعض الشر أهون من بعض » .

فأى الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها ، أن تصبح زوجة ثانية ،

أو ثالثة ، أو رابعة لرجل تستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها ، وترثه إذا مات ويرثه أولادها منه ، أو تضحى فى عداد المبتذلات لاحق لها ضده ، ولاترثه إذا مات ولايرثه أولادها . . فتمسى هى وهم فى حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس ، مجردين من الكرامة فى نظر الشعراء والخلطاء ؟

إن العالم الاجتماعى إذا تأمل فى هذا التشريع يأخذه العجب ، وتلم به الحيرة ، من صدور هذه الحكم الباهرة من رجل أمى ، كان يعيش فى القرن السابع للميلاد . .

علاج الفقر فى الإسلام

يقول البعض : إن محمداً لنشوئه فى الحرمان والفقر كان يفكر فى الفقراء . فأوصى بالتصدق عليهم . . وإلى ذلك تعزى كثرة المتسولين حيث تدرس تعاليم الإسلام .

وهذه فى الواقع ، ليست بشبهة ، ولكنها تنطوى على معجزة اقتصادية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، لمن يتذوق الأمور الاجتماعية ، ويفهم مكان العوامل الاقتصادية منها .

فلو كان القائلون بهذا يعلمون أنه ستخلق فى القرن التاسع عشر مسألة تضطرب لذكرها أعصاب العالم ، وتجتمع لها المؤتمرات تتلوها المؤتمرات ، وتقوم من أجلها حرب عوان ، لا يخمد لها أوار بين العمل ورأس المال ، وتحترق فى سبيل حلها عقول لرجال ممتازين ، تسمى « مسألة الفقر » ويشار إليها فى عرف الاجتماعيين بكلمة Poupérisme . . قلنا لو كانوا يعلمون ذلك لأضربوا عن ذكرها ، لأنها تثبت الخاتم النبيين معجزة من أكبر المعجزات الاجتماعية .

أليس تفكيره فيما كان لا يفكر فيه الناس على عهده ، وتناوله لمسألة لم يشعر الناس بخطرها وإن كانت من أكبر عوامل الانحلال الاجتماعى فى كل مجتمع ، يعتبر من أعجب الأمور ، ويدل على أن دينه جعل ليبقى دين البشرية ما بقى الإنسان ؟

إن أية أمة قديمة يجيل الباحث نظره فيها ، يجد طبقتين من الناس لا ثالثة لهما الطبقة الموسرة ، والطبقة المعسرة .

ويجد بإزاء هذا أمراً جديداً بالملاحظة ، وهو أن الطبقة الموسرة تتضخم إلى غير حد ، والطبقة المعسرة لا تفتأ تهزل حتى تلتصق بأديم الأرض معيبة رازحة .

فيتداعى البناء الاجتماعى لوهن أساسه ، وقد لا يدرى المترفون من أى النواحى انهار عليهم السقف .

كانت مصر فى عهدها القديم جنة الله فى الأرض ، وكانت تنبت من الخيرات ما يكفى أضعاف أهلها عدداً .

ولكن الطبقة الفقيرة فيها كانت لا تجد ما تأكله لأن الطبقة الموسرة كانت لا تترك لهم شيئاً غير حثالة لا تسمن ولا تغنى من جوع .

فلما أصابتها المجاعة على عهد الأسرة الثامنة عشر باع الفقراء أنفسهم للأغنياء، فساموهم الخسف وأذاقوهم عذاب الهون .

وفى مملكة بابل ونينوى . كان الأمر على ما كان عليه فى مصر .

لاحظ للفقراء فى ثمرات بلادهم ، على أنها كانت مثل بلاد الفراعنة نماء وخصوبة ، وكانت تجرى مجراهما فارس . .

أما لدى الأغريق القدامى ، فكان الأمر لا يعدو ما تقدم . . بل تروى عن بعض ممالكهم أمور تقشعر من هولها الأبدان ، فقد كانوا يسوقون الفقراء بالسياط إلى أقذر الأعمال ، ويذبحونهم لأقل الهفوات ذبح الأغنام . .

أما فى أسبارطة ، فقد كان الموسرون يتركون للمعسرين الأرض التى لاتصلح للإنبات ، فذاقوا ألوان ألفاقة كلها ، غير مرحومين . .

وكان الأغنياء فى أثينا يتحكمون فى الفقراء إلى حد أنهم كانوا يبيعونهم بيع العبيد إذا لم يؤدوا لهم ما كانوا يفرضونه عليهم من الإتاوات .

أما فى رومية منبع الشرائع والقوانين ، ووطن الفقهاء والمشرعين ، فقد كان الموسرون يتحكمون فى العامة ، ويتميزون عنهم تميزاً يجعل العامة بإزائهم كالطائفة المنبوذة لدى الهنود . وما كانوا يرضخون لهم إلا بعد أن ينال منهم الإعياء ، فيهجرون المدن ويقاطعون الجماعة مرغمين . .

يقول العلامة المؤرخ « ميشليه » عن المملكة الرومانية من هذه الناحية .

« كان فيها الفقراء يزدادون كل يوم فقراً ، والأغنياء يزدادون غنى ، وكانوا يقولون : ليهلك الوطنى وليمت جوعا إذا لم يستطع أن يذهب إلى ساحات القتال » .

فلما زالت الدولة الرومانية ، وقامت على أنقاضها الممالك الأوربية ، أزادت حالة الفقراء سوءاً ، فكانوا فى جميع أصقاعها يباعون كالماشية مع أراضيهم . .

فلما هل القرن التاسع وظهرت العلوم الاجتماعية ، وتنبهت العقول لعوامل التأليف والتفريق فى الأمم ، شعر الكافة بفداحة داء الفقر ، وأدركوا أنه هو الذى ينخر عظام الجماعات ويفسد كيانها العام .

فارتأى بعضهم أن يحث الأغنياء على التصدق على الفقراء ، فاعترض عليهم ، بأن هذا يفضى إلى التواكل والتكاسل ، فيخسر المجتمع جهود عماله ونشاطهم ..

واستحسن بعضهم أن تفتح لهم أبواب الهجرة وأن يدعوا إليها ، فاعترض عليهم بأن هذا يفضى إلى نزوح الفئات النشطة إلى الخارج ، وفيه خطر شديد ..

فاهتدى أخيراً إلى تأليف الجمعيات التعاونية فأثمرت خير الثمرات .

فإن هذه الجمعيات استطاعت أن تدرك حاجات العاملين ونواحى ضعفهم ، وأن ترفع أمورهم للحكومات بإذالة السعى فى استصدار تشريعات مفيدة لوجودهم ، ومحسنة لأجورهم ، وإن كانت كثيراً ما تثير القلاقل وتمخض مجتمعاتها مخضاً عنيفاً .

وهذه المسألة أكبر المسائل الاجتماعية خطراً ، وأشدها شغلا لأذهان الناس ..

ناهيك أنه قد أصبح اليوم فى الأرض نحو من ثلاثين مليونا من العمال فى حالة عطل ، لا يجدون ما يعملون ولا ما يأكلون . وقد اضطرت الحكومات أن تنفق عليهم من مال الأمة .

فهل يعد مؤلف كتاب « مسائل فى الدين » وأمثاله ، هذه الإعانة صدقة تغرى بالكسل وتكثر المتسولين ، حيث تنتشر تعاليم هذه المدنية الساحرة ؟ .

لهذا السبب كان يهتم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الفقر والفقراء فإنه قدر الفقر أحسن تقدير فقال : « كاد الفقر أن يكون كفرا » وقال : « اللهم إنى أعوذ بك من الفقر » .

ألا ترى كيف أن هذا الفقر يهدد اليوم أكبر مدنية أنتجتها الجهود البشرية بالتحطيم ، ويتوعدها بالقضاء عليها ؟ .

إن من لا يريد أن يرى هذا الأمر ، فهو يريد أن ينكر الشمس وهى فى كبد السماء ! . .

فماذا فعل الإسلام حيال هذه المسألة الخطيرة ؟ .

لقد أوجد نظاما اقتصاديا استوعب جميع المبادىء العمرانية المخففة من خطر الفقر ، والمنجية من آثاره . .

فأجبر الأغنياء على دفع صدقة عن أموالهم، والصدقة فى عرفه ، هى الزكاة .

والزكاة ضريبة إجبارية على كل ذى مال ، تجبى منه باعتبار أنها أموال حكومية لأغراض اجتماعية . فهى غير الصدقة التى تثبط الهمم وتغرى بالكسل .

وقد جعل الإسلام أمر التصرف فى هذه الأموال للحكومة ، فهى التى تعمل بما تمليه عليها الحاجة الوقتية والحالة الاجتماعية .

ومثل هذا الأخذ من الأغنياء ، قد لجأت إليه الأمم الغربية قاطبة اليوم ، باسم الضرائب على رؤوس الأموال،وعلى الدخل ، وعلى المواريث . . والغرض منها كلها تدارك حاجات الفقراء .

وقد بزهم الإسلام جميعاً ، وسبقهم بثلاثة عشر قرناً بتقريره نظام الزكاة .

وقد قصد من ذلك إحداث رد فعل إزاء تضخم الأغنياء .

أما قول « ميشليه » إن الأغنياء فى كل مجتمع كانوا يزدادون غنا ، والفقراء فقرا . . فهذه الحركة الاندفاعية المستمرة من الأغنياء لا بد لها من حركة عكسية مستمرة مثلها ، ليحفظ التوازن من تعاكسهما .

فما قرره الإسلام من الزكاة ، يمنع من تركز المال فى أيدى رجال معدودين ، وحرمان الكافة منه حرماناً مطلقا .

ولم يهمل الإسلام إزاء هذا الحل ، بقية الأصول العمرانية المخففة للفاقة .

فدعا إلى الهجرة فقال تعالى :

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيرَةً وَسَعَةً» .

وعنى عناية خاصة بالحث على التعاون فقال تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .

فالإسلام كما ترى قد مزج الأصول المخففة للفاقة ، وجعل من مجموعها نظاما آليا محكما يعمل فى المجتمع عمل الأداة المنظمة للحركة الاقتصادية .

فنع — بفرض الزكاة تركز المال كله فى أيدى معدودة ، وسن بالحث على الهجرة ، انتقال العدد الزائد من المجتمع إلى البلاد الأخرى تخفيفا للضغط عليه وجعل من حثه على التعاون هيئة تصلح للتوفيق بين العمل ورأس المال . .

وقد حث الإسلام بجانب هذا على الصدقة الاختيارية ، كما فى ذلك جميع الأديان ومذاهب الأخلاق ، فهو لم يبتكر هذه الفضيلة ، ولكنه أيدها وحض عليها . . وأبى أن تكون هذه الصدقة سببا فى تكاسل بعض طبقات المجتمع .

والدليل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا هاجر إليه أفراد من جهات بعيدة — ولم يجدوا لهم مرتزقا ، والأمة فى أول تكونها — أمرهم أن يقيموا بالمسجد . فما زالوا يكثرون حتى بلغ عددهم أربعمائة .

فكانوا إذا طرأ قتال خرجوا معه ، فإذا عادوا أووا إلى المسجد وكان الناس يتولونهم بالنفقة .

فلما تولى عمر الخلافة ، واتسعت مملكة العرب ، صرفهم من المسجد قائلا : « لقد احتفظ النبى صلى الله وسلم بكم فى عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزقا ولكن اليوم قد اتسعت فى وجوهكم أبوابه ، فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين » .

ويخطىء الذين يزعمون ، أن محمدا كان يعانى فى أول أمره من الحرمان ، ولذلك حث على الصدقة .

فإنه لما توفى والده كفله جده عبد الطلب سيد قريش الذى كانت داره مثابة للغادين والرائحين .

فلما مات جده كفله عمه أبو طالب ، وهو من أشهر سادات قريش .

ولم يكن النبى نفسه عاطلا عن العمل . بل بدأ عمله وهو صغير فى الرعى .

فلما ترعرع اشتغل بالتجارة ، . ومازال بها حتى بعثه الله رسولا للعالم كافة .

ولم ينقل أنه كان على فاقة ، أو أنه كان يشكو من الحرمان والفقر .

أليس كل ما تقدم يثبت أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكبر بناة الأمم ، وأعظم صاغه الشعوب . . إذا فكر — وهو يقيم صرحة الاجتماعى الضخم — فى مسألة الطبقات الاجتماعية ، فجاء بنظام اقتصادى هو عينه الذى اهتدت إليه الأمم فى القرن العشرين ، لتتقى به انحلال وحدتها ، وتداعى أركانها .

دفع شبهات عن القرآن

يقول البعض أن القرآن الكريم مشحون بأخبار المشاهد الروحانية عن العقل ، وإنه ينقصه البيان والترتيب وهذا من أعظم علل الإملال والإرتباك لهذا الكتاب مما جعله غذاء عقيما لذويه !

ونحن نطلق كلمة شبهه على مثل هذه العبارات تسامحا ، لأن التهم فيها غير معينة تعييناً واضحا . . فكل كتاب سماوى أو إنسانى يمكن رميه بهذه الوصمات بحق أو بباطل ، والذى يتصدى للرد عليها يضطر أن يجلو عنها الغموض الذى يحيط بها أولا ثم يعنى بمناقشة قائلها :

فهل يعنى هؤلاء بقولهم إن القرآن مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل، وإنه يكثر من ذكر الملائكة والجن والوحى والثواب والعقاب الخ الخ؟ إن كانوا يعنون هذا فكل الكتب المعتبرة أنها سماوية بذكر كل هذه الأمور . . ومنها ماتوسع فيها إلى حد بعيد ، إذ أثبتت أن الله جسداً وإنه قابل بعض الأنبياء وجهاً لوجه وتحدث إليهم ، وأن منهم من أمسك به ولم يفلته حتى حباه بلقب جديدة وقد وصفت هذه الكتب الخالق بأوصاف المخلوقين ، فأسندت إليه الضحك والبكاء والندم والمحاباة والقسوة الخ . على حين أن الإسلام قد قرر أنه دين العقل ، وأنه لا يذكر شيئا يصعب فهمه ، ولم يكاف الآخذ به إلا بما يعقله ويستطيع التدليل على صحته ، وهذه ميزة ليست لدين غيره . فقد زعم حفظة تلك الأديان أن فيها ما هو فوق العقل ، وإنه يجب على الآخذ بها إهمال مواهبه الادراكية فى الأمور الاعتقادية والبون لاحد له بين الفريقين . .

أما القول بأن القرآن ينقصه البيان ، فهذا من أغرب ما سمعناه من الشبهات على هذا الكتاب الكريم ، فإن ساغ لمنكر أن يرميه بكل ما يطوف بخياله من التهم ، فلا يسوغ له أن يرميه بالتجرد من البيان . أما بلغه أن هذا الكتاب قد اعتبره العرب معجزا فى نظمه ومعناه معا ، وأنهم قد قصروا عن الاتيان بمثل سورة منه وقد تحداهم بذلك تحديا ، فقال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت

الكافرين » ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ؟ .

وقد سلم العرب بإيمانهم به بأنه معجز حقا . . وقد ساد هذا الرأى حتى فى العهد الذى بلغت فيه البلاغة العربية الذروة بدخول الأساليب الفارسية واليونانية والهندية إليها فى القرن الثالث للهجرة ، وقد وضعت مؤلفون تكشف عن أسرار بلاغته من فحول البلاغة أنفسهم ، وكل ما ألفه المؤلفون فى علوم البيان والبديع والمعانى اعتمدوا فيه على أمثلة من القرآن ، باعتبار أنه ينبوع لا ينضب معينه لجميع ضروب البلاغات اللفظية والمعنوية . . فهل يمزح هؤلاء بقذفنا بهذه الشبهة ، أم هم يقولون ما يعتقدون صحيحا ، فيدل ذلك دلالة ناطقة على أنهم لا يعرفون العربية ، ولا يحسنون حتى النقل عن المستشرقين الذين عرفوها ، وشهدوا للقرآن ببعض ما يستحقه من هذه الناحية ؟

بقى القول بأنه خال من الترتيب . . يراد بذلك أنه غير مرتب على فصول وأبواب كسائر الكتب ، فلم توضع أغراضه كل فى الفصل أو الباب الخاص به ، بل مزجت مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف . . قيل وهذا سبب الملل الذى يعترى سامعه وقارئه ، وعلة للارتباك فى فهمه ، مما جعله غذاء عفيا لذويه .

وفات هؤلاء أن هذا الكتاب لو كان مختلقا لتوخى فيه مؤلفه الترتيب الذى يتطلبه صاحب كتاب « مسائل فى الدين وأمثاله . فقد جرت العادة أن يجلس الذى يريد أن يضع كتابا إلى ناحية ويفكر فى نظامه وأغراضه ، فيجعل لكل طائفة من المواد فصلا . . ولكن القرآن ليس بكتاب وضعى ، ولكنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارىء ، فمنه آيات نزلت للدعوة إلى الدين وأخرى للرد على المنكرين ، وغيرها للإجابة على السائلين ، وسواها للفصل بين المتنازعين ، وطائفة للحث على الجهاد ، ومثلها للحض على مكارم الأخلاق الخ مما لا يكاد يحصى وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية فلقد كان الوحى لدى الطائفة التى أخذت بالإسلام لأول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها ، تستهدى به فى المشكلات ، وتسترشد به فى تذليل العقبات ، وتتحرك تحت إملائه نحو ما جل وما حقر من الأغراض ، إلا ما ترك لإدارتهم فى بعض الشئون تمرينا لهم على الاكتفاء بعقولهم متى استعدوا له بعد حين .

« فهو مجموع اشراقات من الوحى اقتضتها الحوادث وقت حدوثها ، وهذه

الحوادث تتكرر فى كل جيل . وتتردد فى كل مجتمع . . وكثير من آيات القرآن نزلت فى إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وبعث الهمم إلى جلائل الأعمال ، وتثبيت العاملين فى جهادهم ، ونفث روح المثابرة فى كيانهم. فهذا المجموع من اشراقات الوحى متى قرىء أو سمع استدلى على جميع مآخذ النفوس ، وتسلط على كل مسارب العقول ، وتحكم فى مواطن الاقتناع من الصدور ، فلا يجد تاليه أو سامعه محيصاً من الأذعان إليه، والاستخذاء له، لأنه يحرك جميع الأوتار فى الروح الإنسانى دفعة واحدة ، فيؤخذ سامعه به أخذا ، كأنه قد غمرته موجه من السحر فلم تدع له متنفسا فى غيره من الامور ، ولم تترك له منفذا سواه من الشئون .

وقد شعر بتأثير القرآن هذا كل من قرأه ومن سمعه ، سواء أكان من أهل هذا الدين أم لم يكن . . فهل هذا التأثير السحرى هو الذى يعبر عنه المغرضون بأنه موجب للاملال ، وباعث إلى الكلال ؟! إن كان هو هذا فيكون قد سمى الشيء بغير إسمه ، وأطلق عليه ما يدل على عكسه .

أما أنه غذاء عقيم للآخذين به ، والمعولين عليه ، فهذا من أعجب ضروب المنطق . . فإن المعروف أن هذا الكتاب نزل فى قبائل متفرقة الاهواء ، مشتتة الهموم ، موزعة الجهود ، متنافرة المطالب . لاهم لها إلا التناحر والتناهب ، ولاعهد لها بنظام اجتماعى، ولا بغرض سياسى، ولا بوحدة اقتصادية ، ولا بنزعة عمرانية ، ولا بعاطفة عملية . . فجمع متفرقها ، ووحد وجهتها وغايتها ، ونظم شئونها، ثم رمى بها كتلة مندمجة الاجزاء حاصلة على جميع مقومات الحياة وعوامل التطور ، فى بهرة المجتمعات البشرية ، حيث مزدحم المطامع ، وملتطم المصالح ، ومعترك الاهواء ، وحيث التناحر فى سبيل لقمة العيش يسوق الجماعات للتآخذ بالايدى والمناكب ، وللترامى بالحديد والنار . فلم تلبث أكثر من ثمانين سنة حتى أوجدت لنفسها ملكا لاتغرب عنه الشمس ولم يتسن لأكبر الامم الفاتحة مثله ولا الرومانين ، ولا اتفق لاوسع الأمم المعاصرة استعمارا شبهه إلى اليوم ، فانتهت إليها خلافة الارض فى العلم والفلسفة والفنون والسياسة ، وكانت سببا فى إنهاض العالم من كبوته ، وإقالة المدينة العالمية من عثرتها . . شهد لها بذلك الاقربون والابعدون ، وأعترف لها به الموالول والمعادون ، فهل هذا أثر الغذاء العقيم الذى أتى به القرآن لذويه ؟ ! .

الفهرس

صفحة

صفحه

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٣٧٦١